المجتمع الأندلسي

" فيما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين "

صورته من شعره

إعداد الدكتورة

أميرة أحمد محمد خليل

مدرس الأدب ونقده

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق

جامعة الأزهر – مصر

المجتمع الأندلسي
(فيما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين)
صورته من شعره

أميرة أحمد محمد خليل .
قسم الأدب والنقد، شعبة اللغة العربية، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، للبنات بالزقازيق، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني: amiraKhalile.67@azhar.edu.eg

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة جانب مهم من جوانب الحياة في الأندلس، لم ينل حظا وفيرا في مجال الدراسات الأدبية وغيرها، ألا وهو الجانب الاجتماعي، الذي نطّلع من خلاله على مجموعة من الممارسات اليومية لمختلف الشّعوب الأندلسية كالعادات والتّقاليد، والمثل والأخلاق، والاحتفالات والأعياد، ووسائل التّسلية والتّرفيه، وغيرها من التّفاصيل الدّقيقة التي صوّرها الشّعراء في دواوينهم، والتي تلعب في حياة الأفراد والمجتمعات سلاحًا ذا حدّين، تأتي نتائجه تبعًا لطرق استخدامه إيجابًا وسلبًا ، وهذا ما قد بدا واضحًا في حقبة الدّراسة "ما بين القرنين السّابع والتّاسع الهجريين"، حيث شهدت الأندلس خلال هذه الحقبة من التّقدّم والرّقي الحضاري مالم تشهده من قبل، ولكن حين مال أصحاب النّفوس الضّعيفة إلى الأطماع السّياسية، وانحرفوا نحو الآفات الاجتماعية، ففرّطوا في أمور دينهم، وتخلّوا عن هويتهم العربية الخالصة، وأعرافهم المتوارثة، وهاموا على وجوههم في ملذّات الدّنيا الفانية؛ باءت الدّولة بالضّعف والهوان، وعاشت حياة الذّل والانكسار، وأخذ عقد مدائنها تنفرط حبّاته الثّمينة واحدة تلو الأخرى، حتى سقطت غرناطة، وسقطت معها دولة الإسلام بالأندلس، بعد حكم لها ظلّ قرابة ثمانية قرون من الزّمان.

الكلمات المفتاحية: المجتمع الأندلسي، القرنين السّابع والتّاسع الهجريين، الاحتفالات والأعياد، المثل والأخلاق، شعر الإخوانيات، شعر التّهاني، شعر المخاطبات والمراسلات.

Andalusian society (between the seventh and ninth centuries AH) Portrayed from his poetry

Amira Ahmed Muhammad Khalil

Department of Literature and Criticism , Arabic Language Division Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls in Zagazig,Al-Azhar University Arab Republic of Egypt.

Email: amiraKhalile.67@azhar.edu.eg

Abstract:

This research aims to study an important aspect of life in Andalusia, that did not get much luck in the field of literary studies and others, namely the social aspect, through which we learn about a set of practices daily for the different peoples of Andalusia such as customs and traditions, ideals an morals, celebrations and holidays, means of entertainment and amusement, and other fine details portrayed by poets in their collections, which represent a double-edged sword in the lives of individuals and societies, the results of which come according to the ways in which it is used, positively and negatively , This is what has been evident in the era of the Study "Between The Seventh and Ninth Centuries AH", where Andalusia witnessed during this era of progress and civilizational advancement what it had not seen before, but when the owners of weak souls tended to political ambitions, and deviated towards social ills, They overdid the matters of their religion, and abandoned their pure Arab identity, and their inherited customs, and wandered on their faces in the pleasures of the mortal world, the state was weak and humiliated, and lived a life of humiliation and brokenness, and took the contract of its cities scattered precious beads one after the other, until Granada fell, and fell with the state of Islam in Andalusia, after the rule of Muslims remained nearly eight centuries.

Keywords: Andalusian society, seventh and ninth centuries AH, celebrations and holidays, ideals and morals, Brotherhood poetry, congratulations poetry, speech poetry and correspondence.

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، حمد الشّاكرين لنعمه، والصّلاة والسّلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمّد- ﷺ- وعلى آله وصحابته، ومن سار على دربهم، واهتدى بهديهم إلى يوم الدّين.

وبعد،،،

فأهمّية هذه الدّراسة تكمن في التّعرّف على بعض جوانب الحياة اليومية لأهل الأندلس، وما وصلوا إليه من معاييرٍ اجتماعيّة، وسلوكيّاتٍ أخلاقيّة، في حقبةٍ من أهمّ وأبرز حقبها التّاريخيّة، وأكثرها تأثيرًا في الكيان العربي والإسلامي بها، فكما شهدت على قوّتهم وازدهار حضارتهم، شهدت- كذلك- على ضعفهم وانهيار دولتهم.

وينبغي الإشارة إلى أنّ المقصود بالشّعر الاجتماعي هنا: ما نظمه الأندلسيّون من شعرٍ يتّصل اتّصالا وثيقًا بمجتمعهم الذي عاشوا في كنفه، ونشأوا بين جوانبه، وتربّوا على ما شاع لديه من عادات، وتقاليد، وأعراف، وما دار بين الأهل والخلان من علاقات ومجاملات، فالقصيدة تُعدّ اجتماعيّة إذا تناولت موضوعًا يهمّ النّاس، ويتردّد بشكلٍ منظّمٍ، وصفةٍ مستمرّةٍ في حياتهم اليوميّة، إذن فليس المقصود به غرضًا شعريًّا معيّنًا، وإنّما هو تلك الموضوعات التي تعنى بالحياة الإنسانية العامّة، والتي غالبًا ما تصدر عن تجارب شعورية صادقة، وتفاعلات اجتماعية قوية ومتبادلة.

ولمّا كانت جوانب الحياة الاجتماعيّة في كلّ زمانٍ ومكانٍ كثيرة ومتعدّدة، ارتأيت- لئلا يطول المقام- أن أقتصر في بحثي هذا على أبرز الموضوعات التي عالجها الشعراء الأندلسيون في تلك الحقبة الزّمنية، وفاضت بها دواوينهم، حتّى أضحت مرآة صادقة، عكسوا بها ما كان يدور في مجتمعاتهم من أحوالٍ إنسانيّة وعلاقات، فتكوّن من هذه المقدمة ومبحثين، المبحث الأول بعنوان: تصوير أخلاق

المجتمع الأندلسي، وعاداته وتقاليده، ويشمل دراسة (المثل والأخلاق، الأعياد والاحتفالات العامّة، وسائل التسلية واللهو، الآفات الاجتماعية).

والمبحث الثّاني بعنوان: تصوير العلاقات الاجتماعية بين الأدباء والشّعراء، وذوي المناصب، وهو ما يُعرف بـ " شعر الإخوانيات"، ويشمل دراسة شعر (التّهاني، التّعازي، العتاب والاعتذار، الهدية والاستهداء، المخاطبات والمراسلات)، ثمّ جاءت الخاتمة، فشملت أهمّ النّتائج التي توصّل إليها البحث، يتلوها ثبت بالمصادر والمراجع.

وقد اتّبعت في دراسة هذا الموضوع المنهج الوصفي التّحليلي، الذي يتناسب كثيرًا مع استقراء النّصوص الشّعرية، والبحث الدّقيق عن أهمّ وأبرز ما سجّلته من ظواهر وأحداث تصوّر الواقع الاجتماعي للشّعوب الأندلسية في حقبة الدّراسة، ومن ثمّ تتبّعها بالشّرح والتّوضيح.

المبحث الأول
تصوير أخلاق المجتمع الأندلسي
وعاداته وتقاليده

أدب الأمّة هو تعبير صادق، ومرآة عاكسة لكلّ ما يدور في حياتها، ولعلّ نظرة دقيقة متأنّية في الكتب الأدبية لعصر ما كفيلة بأن ترسم في أذهان القرّاء صورة واضحة عن المجتمع وأحواله في ذلك العصر، فثمة علاقة وثيقة بين الأدب وحركة المجتمع الذي نشأ فيه، وقد عبّر الشّعراء الأندلسيّون في حقبة الدّراسة عن كثيرٍ من العادات والتّقاليد الشّائعة في مجتمعاتهم، وصوّروا جوانب شتّى من أخلاقهم وسلوكيّاتهم اليوميّة، يعرضها البحث على النّحو الآتي:

أولا: المثل والأخلاق:

تمتّعت الشّعوب الأندلسيّة بالمثل النّبيلة، والأخلاق العربية والإسلامية القويمة، وبذلوا قصارى جهودهم في الحفاظ عليها، فافتخروا بها وخلّدوها في أشعارهم، ومن بين هذه المثل والأخلاق صفة القوّة والشّجاعة، التي تدفع صاحبها نحو الجهاد، ومواجهة الأعباء والمخاطر في سبيل إعلاء كلمة الدّين، ورفع لواء الوطن، ومن أجمل ما قيل في تصوير ذلك والفخر به، قول يوسف الثّالث[1]:

(من الطويل)

إِذَا شِئْتَ أَنْ تُعْطِي المَقَادَةَ أَهْلَهَا وَتَلْقَى حُسَامَ النَّصْرِ فِي كَفِّ ضَارِبِ

تَجِدْنِيَ مِقْدَامًا عَلَى الهَوْلِ لَمْ أُبَلْ بِمَا جَمَعُوا أَوْ عَدّدُوا مِن مَنَاقِبِ

يُصَاحِبُنِي حَزْمٌ يَخُونُ هَوَاجِسِي وَعَزْمٌ كَمَا سُلَّتْ رِقَاقُ المَضَارِبِ

(١) هو يوسف بن يوسف بن محمّد "الغني بالله" ابن يوسف النصري، أبو الحجاج، الملقّب بالناصر، شاعر من ملوك الأندلس من سكان غرناطة، دام حكمه تسعة أعوام تُعدّ من الصّفحات الزاهية في تاريخ مملكة غرناطة، ت(٨٢٠هـ)، يُنظر ترجمته في: الأعلام للزّركلي، ت(١٣٩٦هـ)، ط١٥، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م، ٢٥٩/٨، ويُنظر في النّص: ديوان ملك غرناطة يوسف الثّالث، تحقيق/ عبدالله كنون، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة، ١٩٦٥م، ص٥.

فالشّاعر يفخر بذاته، ويرى أنّه القائد المقدام في الحروب، يقود الجيوش، ولايبالي بما يملكه العدو من عدّة وعتاد؛ وذلك لما يصاحبه في أرض القتال من حزمٍ شديدٍ، وعزيمة جبّارة، وهمّةٍ عالية، تجعله كلّما دقّت طبول المعركة يستجيب لها كصليل السّيوف الرّقاق حدّة وخفّة.

ولا يقف الأمر في نفس الشّاعر عند ذلك، بل يتمادى في تصوير شجاعته بأن يصف نفسه بالموت المحتّم لكل من تسوّل له نفسه وينتهك حرمة الدّين، أو يقترب من حدود الوطن، أو يقلّل من كرامة الشّعب؛ لأنّه لا هربٌ يُنجّيه من قبضة يديه، ولا حذرٌ يغنيه عن محاسبته والنّيل منه، فهو البطل الهُمام الذي يخوض غمار المعارك دون خوف، ويواجه الفرسان دون تراجعٌ أو ضعف، إذ يقول(١):**(من الطويل)**

فَمَنْ مُبْلِغُ الأقْوَامَ عَنِّي بِأَنَّنِي أَصُولُ بِلا ذُعْرٍ وَأعطِي بِلا مَنِّ

وَإِنِّي أَنَا المَوتُ الذِي تَحْذَرُوْنَهُ فَلا هَرَبٌ يُنْجِي وَلا حَذَرٌ يُغْنِي

ومن منطلق جمع الشّاعر في هذين البيتين لنفسه بين الشّجاعة والكرم، يأتي الحديث عن تلك الصّفة الأخيرة، التي تعدّ من أبرز صفات المجتمع العربي منذ القدم، ومن شعراء حقبتنا الذين دعوا صراحةً إلى التّخلّق بالكرم، ابن خاتمة الأنصاري، إذ يقول(٢): **(من البسيط)**

إِذَا وَجَدْتَ فَجُدْ للنَّاسِ قَاطِبَةً فَالحَالُ تفْنَى وَيَبْقَى الذِّكْرُ أحْوَالا

لا سيَّمَا وَرَسُولُ اللهِ ضَامِنُهُ أَنْفِقْ وَلا تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْشِ إقْلالا

(١) ديوان ملك غرناطة يوسف الثّالث، ص١٣٢.

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن علي بن محمّد بن خاتمة الأنصاري، من أهل ألمريّة من أعمال الأندلس، كان ملمًا بالكثير من العلوم والفنون، ت(بعد ٧٧٠هـ)، يُنظر ترجمته في: نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، المقري التّلمساني، ت(١٠٤١هـ)، تحقيق/ د. إحسان عباس ط١، دار صادر، بيروت- لبنان ١٩٩٧م، ١٠٨/١، ويُنظر النّصّ في: ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي، تحقيق/ د. محمّد رضوان الدّاية، ط١، دار الفكر المعاصر- بيروت، دار الفكر- دمشق، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م، ص١٥٦، ١٥٧.

فإذا كان يوسف الثّالث يحرص في عطاياه أن تكون خالصة لوجه الله- تعالى- خالية من آفات المنّ والأذى، فإن ابن خاتمة يدعو إلى تعميم البذل والعطاء؛ ليشمل كافّة النّاس، ويرى أن في ذلك تخليدًا لذكرى الإنسان، ولا يخفى تأثّر الشّاعرين بتعاليم الإسلام الحنيف، ومبادئه القويمة، والعمل على تطبيقها في أحسن ما يكون، فيبدو الاقتباس من القرآن الكريم واضحًا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[1]، والحديث النّبوي الشّريف في قوله ﷺ : "أَنْفِقْ بِلالُ، وَلا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلالا"[2].

ويعضد ابن خاتمة دعوته إلى التّحلّى بالجود والكرم، بدعوة أخرى تدور حول نبذ البخل والحرص، منكرًا على البخلاء عشقهم الشّديد للمال، وإنفاق ما وهبهم الله- تعالى- من أعمارهم الغالية الثّمينة في السّعي وراء تحصيله وجمعه، هربًا من الفقر والعوز، فضاعت بلا جدوى تعود عليهم، ولا فائدة تُرتجى لهم، فيتوجّه إلى تلك الطّائفة بالنّصح والإرشاد، قائلا[3]: **(من البسيط)**

يَا مَن غَدَا يُنْفِقُ العُمْرَ الثَّمِينَ بِلا جَدْوَى سِوَى جَمْعِ مَالٍ خِيفَةَ العَدَمِ

ارْجِعْ لِنَفْسِكَ وَانْظُرْ فِي تَخَلُّصِهَا فَقَدْ قَذَفْتَ بِهَا فِي لُجَّةِ العَدَمِ

ومثلما تنبذ النّفس الكريمة آفة البخل والحرص الشّديد، الذي يعود على صاحبه ومن تلزمه نفقتهم، بل وأفراد المجتمع من حوله بالضّيق والأذى، تنبذ أيضًا آفة

(١) سورة البقرة، آية "٢٦٢".
(٢) المعجم الكبير، أبوالقاسم الطّبراني، ت(٣٦٠هـ)، تحقيق/ حمدي عبدالمجيد، ط٢، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤١٥هـ= ١٩٩٤م، الحديث رقم (١٠٢٥)، ٣٤٢/١.
(٣) ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ص١٥٦.

الإسراف، وإخراج المال وما في حكمه في غير بابه، كالمبالغة في التّمتّع بلذّة الدّنيا وشهواتها، يقول ابن ليون التّجيبي[١]: **(من السريع)**

مَنْ تَرَهُ يُسْرِفْ في مَالِهِ يُتْلِفْهُ فـي لَـذَّةٍ وَانْهِمَـاكْ

فَذَلِكَ المَغْبُونُ فـي رَأيِـهِ يَسْلُكُ بِالنَّفْسِ سَبِيلَ الهَلاكْ

ومن الأخلاق النّبيلة التي أشاد بها الشّعراء الأندلسيّون، وافتخروا بها، وعدّوها من صفات المجد والرّفعة، صفة التّواضع، وفيها يقول ابن ليون[٢]: **(من البسيط)**

تَوَاضُـعُ المَـرءِ تَرْفِيـعٌ لِرُتْبَتِـهِ وَكِبْـرُهُ ضَـعَةٌ مِـن غَيـرِ تَرْفِيـعِ

فـي نَخْوَةِ الكِبْرِ ذُلٌّ لا اعْتِزَازَ لَـهُ وَفـي التَّوَاضُـعِ عِزٌّ غَيـر مَدْفُوعِ

فالتّواضع هو قمّة الرّفعة، يعود على المرء بالعزّة في الدّنيا والآخرة، وفي مقابل ذلك تأتي آفة الكبر، التي تنقلب على صاحبها دائمًا بالذّل والافتقار، ولا غرابة، فمن تواضع إنّما يتواضع لله، ومن تكبّر إنّما يتكبّر عليه سبحانه، وقد قال النّبيﷺ في شأن ذلك: "مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً، حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً، وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً، حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ"[٣]، ويزيد ابن خاتمة على هذا المعنى قائلا[٤]: **(من البسيط)**

دِنْ بِالتَّوَاضُـعِ وَالإِخْبَـاتِ مُحْتَسِـبًا تَفُـقْ عَـلاءً عَلَـى أَهْـلِ السِّـيَادَاتِ

---

(١) هو أبو عثمان، سعد بن أحمد بن إبراهيم بن ليون التّجيبي، ولد بألمرية، ونشأ بها، ولم يخرج منها، من علماء الأندلس وأدبائها المتقدّمين، ومن أكابر الأئمة الذين أفرغوا جهدهم في الزهد والعلم والنصح، له أكثر من مائة مصنَّف في مختلف العلوم والفنون، توفّى شهيدًا بالطّاعون، ت(٧٥٠هـ)، ينظر ترجمته في: نفح الطّيب ٥٤٣/٥، والأعلام للزركلي ٨٣/٣، وينظر النّص في: شعر ابن ليون التّجيبي، ت(٧٥٠هـ)، مجلة المورد، دراسة وتحقيق/ هدى شوكت بهنام، المجلّد "٣١"، العدد "٣، ٤"، ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م، ص١١٣.

(٢) شعر ابن ليون التّجيبي، ص١١٠.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن حنبل، ت(٢٤١هـ)، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، ط١، مؤسّسة الرّسالة، ١٤٢١هـ= ٢٠٠١م، الحديث رقم (١١٧٢٤)، ٢٥٠/١٨، وقال المحدثين في حكمه: حديث مرفوع.

(٤) ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ص١٥٤.

فَـالتُّرْبُ لَمَّـا غَـدَا للرِّجْـلِ مُتَّطئًـا تَمَسَّـحَ النَّـاسُ مِنْـهُ فـي العِبَـادَاتِ

فهو يدعو النّاس إلى خُلُق التَّواضُع، واحتسابهم الأجر والمثوبة في ذلك عند الله– سبحانه وتعالى– فبالتّواضع يزيد قدر المرء، وتعلو مكانته، ثمّ نراه– في محاولة منه لتقريب الصّورة إلى ذهن المتلقّي– يضرب المثل بالتّراب، فقد اعتاد النّاس أن يطأوا عليه بأرجلهم، ولكنّه في الوقت نفسه يحتلّ مكانة عالية في حياتهم، أبرزها ما يختصّ بعبادة المسلم اليومية، حيث يتيمّم به عوضًا عن الماء عند الضّرورة، ولا يخفى ما فيه من ملمح إلى أصل خلقة الإنسان، وهو التّراب.

أمّا الصّدق فهو من أشرف الخصال، وأعظم الخلال التي حثّنا عليها الإسلام، ودائمًا هو طريق النّجاة، وميثاق الأمانة والشّرف؛ لذا حرص الأندلسيّون عليه، وتمسّكوا به، ودعوا إلى التّعامل بخُلقه الكريم في جميع الشّؤون، ومختلف الأوقات والظّروف، يدلّ على ذلك قول ابن ليون التّجيبي[1]: **(من البسيط)**

الصِّدقُ عِزٌّ فَـلا تَعْدِلْ عَـن الصِّـدْقِ وَاحْذَرْ مِن الكَذِبِ المَذْمُومِ فـي الخلقِ

مَنْ لازَمَ الصِّدقَ هَابَتْـهُ الـوَرَى وَعَـلا فَالزَمْــهُ دَأبًــا تَفُــزْ بِــالعِزِّ وَالسَّــبْقِ

فالصّدق يورث صاحبه عزّة للنّفس وهيبة من النّاس، بخلاف الكذب فإنّه يورثه الخزي والهوان، والصّادق الحقّ لا يخاف في قوله لومة لائم، ولا يفكّر فيما قد يلحق به من سوء العواقب؛ لأنّه على يقين تامّ بأنّ الحقّ يومًا سينجلي، يقول التّجيبي[2]: **(من مجزوء الرمل)**

لا تَخَفْ فـي الحَقِّ لَومًـا صِـدْقُهُ يُنجِيكَ حَتْمَـا

يُنْجَلِــي الحَــقُّ وَيَبْــدُو نُــــوْرُهُ لا يَتَعَمَّــــى

شَـأنُ ذِي الحَـقِّ اهْتِـدَاءُ وَأخُـو البَاطِـلِ أعْمَـى

(١) شعر ابن ليون التّجيبي، ص١١٣.
(٢) شعر ابن ليون التّجيبي، ص١٢٣.

ومن الأخلاق التي استمدّها الأندلسيّون وغيرهم من تعاليم دينهم الإسلامي الحنيف، القناعة والرّضا، وترك المطامع في الأمور كلّها، فمن قنع ورضي بما قسمه الله- تعالى- له، عزّ وارتفع، ومن طمع فيما عند غيره، ذلّ واتّضع، يقول ابن ليون في شأن ذلك[١]: **(من مجزوء الكامل)**

إنْ شِـئْتَ عِـزًّا دَائِمًـا فَاسْـلُكْ سَـبِيلَ مَـنْ اقْتَنَـعْ

إنَّ القَنَاعَـــةَ عِـــزَّةٌ وَالــذُّلُّ عَاقِبَــةُ الطَّمَــعْ

المَـرءُ إنْ قَنَـعَ اعْتَلَـى قَـدْرًا وَإنْ طَمَــعَ اتَّضَــعْ

وهذا الطّامع إذا كان يبحث بذلك عن سبل الغنى، فقد ضل سبيله، وأخطأ في تدبيره؛ لأنّ الغنى ليس عن كثرة ما بيد الإنسان، وإنّما الغنى يكون في راحة النّفس وزهدها، كما ورد عن النّبيﷺ: "أَيُّهَا النَّاسُ لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ"[٢]، ويقول الشّاعر متأثّرًا بالحديث، ومقتبسًا في معناه الشّريف وألفاظه[٣]: **(من السريع)**

لَـيسَ الغِنَـى عَـن كَثْـرَةِ العَـرَضِ إنّ الغِنَـى فـي الـنّفْس إن تُـرضِ

رَأسُ الغِنَـى تَـرْكُ المَطَـامِعِ عَـنْ زُهْــدٍ بِــلا مَيْــلٍ وَلا غَــرَضِ

فَازْهَدْ تَعِشْ أغْنَـى البَرِيَّـةِ فـي عِــزٍّ بِــلا هَــمٍّ وَلا مَضَــضِ

ومن الأخلاق الكريمة، والخصال النّبيلة التي نال منها الأندلسيون حظّا وفيرًا، خلق الصّبر على الشّدائد، فهو يورث الهداية في القلوب والأرواح، ويعين صاحبه على الطّاعة وفعل الصّالحات، والاستغناء بالله تعالى، والكف عن الشّكوى لغيره،

(١) شعر ابن ليون التّجيبي، ص١٠٩.
(٢) صحيح البخاري، محمّد بن إسماعيل البخاري، تحقيق/ محمّد زهير بن ناصر النّاصر، ط١، دار طوق النّجاة، ١٤٢٢هـ، كتاب الرّقاق، باب الغنى غنى النّفس، الحديث (٦٤٤٦)، ٩٥/٨.
(٣) شعر ابن ليون التّجيبي، ص١٠٨.

وممّن كثر نظمهم في هذا المعنى الشّاعر الرّحالة ابن جبير الأندلسي[١]، إذ يقول[٢]:

(من الطويل)

عليك بكتمَانِ المَصَائِبِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا فَمَا أَبْقَى الزَّمَانُ شَفِيقَا

كَفَاكَ مِنَ الشَّكوَى إلى النَّاسِ أَنَّهَا تَسُرُّ عَدُوًّا أو تَسُوءُ صَدِيقًا

ومن ذلك أيضًا ما أنشده لأحد أصدقائه بالإسكندرية، يدعوه فيه إلى ضرورة التّحلّي بخلق الصّبر والتّأنّي في الأمور واتّخاذ القرارات، ممّا يكون له عظيم الأثر في حياة الإنسان، فيقول مرشدًا وناصحًا[٣]: **(من المنسرح)**

تأنَّ في الأمرِ لا تَكُنْ عَجِلا فَمَن تَأنَّى أَصَابَ أو كَادَا

وَكُنْ بحَبْلِ اللهِ مُعْتَصِمًا تَأمَنْ بِهِ بَغْيَ كُلِّ مَنْ كَادَا

كذلك التزم أكثر أهل الأندلس بالوفاء للجار، وحسن معاملته، ومراعاة حقوقه، إذعانًا بأمر الله تعالى في ذلك ، حيث قال وقوله الحقّ ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ [٤]، وعملا بوصيّة النّبيﷺ على تبادل الألفة والمودّة بين المرء وجيرانه بما نصّه: "مَا زَالَ يُوصِينِي جِبْرِيلُ بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ"[٥]، يمثّل لهذا قول ابن ليون حاثًّا على حسن معاملة الجار لجاره، والتّغاضي عن أذاه، بل وستره قدر المستطاع، والتّجاوز عمّا قد يصدره في حقّه من أخطاءٍ وزلات[٦]:

(من السريع)

---

(١) هو محمّد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمّد بن سعيد بن جبير، كان أديبًا بارعًا شاعرًا مجيدًا سنيًّا فاضلا وكان رحّالة، رحل ثلاثًا من الأندلس إلى المشرق، وحج في كل مرّة منها، ت(٦١٤هـ)، يُنظر= =ترجمته في: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدّين ابن الخطيب، ت(٧٧٦هـ)، تحقيق/ د. يوسف على طويل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م ٢/ ١٤٦.

(٢) ديوان الرّحالة بن جبير الأندلسي وما وصل إلينا من شعره، تحقيق/ د. منجد مصطفى بهجت، ط١، دار الرّفاعي، الرّياض، ١٤١٩هـ= ١٩٩٩م، ص١١٩.

(٣) ديوان الرّحالة بن جبير الأندلسي وما وصل إلينا من شعره، ص٩٧.

(٤) سورة النّساء، آية "٣٦".

(٥) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، الحديث (٦٠١٤)، ١٠/٨.

(٦) شعر ابن ليون التّجيبي، ص١٠١.

لِلجَــارِ حَــقٌّ فَاعْتَمِــدْ بِــرّهُ وَاحمـلْ أَذَاهُ مُغْضِيًا سَـاتِرَا
فَـاللهُ قَدْ وَصَّـى بِـهِ فَـاغْتَفِرْ زَلّهُ البَـــاطِنَ وَالظَّـــاهِرَا

وبعـد، فـالواقع أنّ الأندلسـيين قـد اتّسـموا بالعديـد مـن المثـل النّبيلـة، والأخـلاق الكريمـة، منها ماورد في أشعارهم، ومنها ما لم يرد، ووصل إلينا في فنونهم النّثريّة، ومصـادرهم الأدبيّة كـالنّفح والإحاطـة، وغيرهمـا، ويعدّ ابـن جبير، وابـن خاتمـة، وابـن ليون– كما هو واضح من خلال النّماذج السّابقة– من أكثر شعراء وقتهم تصويرًا لتلك المثل التي ترّق لها الطّبائع والنّفوس.

ثانيًا: الأعياد والاحتفالات العامّة:

كما اشتهر أهل الأندلس بشدّة حبّهم للطّبيعة، وكثرة خروجهم للتّنزّه في الحدائق والبساتين، اشتهروا أيضًا بممارستهم الرّياضة والألعاب، واهتمامهم البالغ بمظاهر التّسلية واللّهو، وحرصهم الدّائم على إسعاد أنفسهم بالأعياد والمناسبات والمواسم، إلا أنّهم اقتصدوا بعض الشّيء في مظاهر الاحتفال، على حدّ ما يقول ابن الخطيب: "أعيادهم حسنة، مائلة إلى الاقتصاد"(١)، ومن هذه الأعياد والمناسبات ما كان إسلاميًّا خالصًا، كالتّطلّع لهلال شهر رمضان، وتوديع الأيّام الأخيرة من شعبان، ومن ذلك قول ابن خاتمة الأنصاري، فيما يسمّى عندهم بـ "الشّعبانية"(٢): **(من الكامل)**

للهِ أَرْبَعَـــــةٌ مـــــن الـــــدَّهْرِ حَسْـبِي بِهَـا مِـن جُمْلَـةِ العَمـرِ
سَـمَحَ الزَّمَـانُ بِهَـا عَلَـى بخـلٍ فِيهَـــا وَوَفَّاهَـــا عَلَـــى غَـــدرِ
أَعْجِـــبْ بِهَـــا أيَّـــامَ مَالَقَـــةٍ بَـــينَ المُنَـــى وَصَـــحَابَةٍ غُـــرّ
مَا شِئْتَ مِنْ حُسْنٍ وَمِن حَسَنٍ مَا شِئْتَ مِنْ شَمْسٍ وَمِنْ بَدْرِ
يَسْـــعَى عَلَيْنَـــا مُسْـــمِعٌ غَـــرِدٌ يُغْنِيـكَ عَـنْ نُقْـلٍ وَعَـنْ خَمْـرِ

(١) اللّمحة البدرية في الدّولة النصرية، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق/ د. محمّد مسعود جبران، ط١، دار المدار الإسلامي، بيروت- لبنان، ٢٠٠٩م، ص٦٥.
(٢) ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ص١٢١.

أَعْقَــابُ شَــعْبَانٍ عَجِبْــتُ لَهَــا بِيْضًــا نَصَــلْنَ أَوَاخِــرَ الشَّــهْرِ
وَلَـــرُبَّ مَحْمُـــودٍ عَوَاقِبُـــهُ لَــمْ يَجْــرِ أَوَّلُــهُ عَلَــى ذِكْــرِ
لَــوْلا التَّحَــرُّجُ قُلْــتُ: رُتْبَتُهَــا فِــي القَــدْرِ رُتْبَــةُ لَيْلَــةِ القَــدْرِ
مَــا إِنْ ذَمَمْتُ لَهَا سِوَى عَجَلٍ بِــالفَجْرِ قَبْــلَ صَــبِيْحَةِ الفَجْــرِ

يعرض الشّاعر في هذه الأبيات صورة حية لأيّامٍ ولياليٍ جميلة، أُقيمت فيها الاحتفالات اللّطيفة، لتوديع شهر شعبان فيما تبقي من أيامه، واستقبال شهر الصّوم، وقد قضاها بمدينة "مالقة"، في أحد بساتينها المزهرة، وفي جوٍّ طبيعيٍّ خلاب، تغرّد فيه البلابل، وتتمايل على أنغامها الأشجار، فيبدي إعجابه الشّديد بتلك الأيّام، وفرحته الكبيرة بقدومها؛ لأنّها تبشّر بما بعدها، كما يبشّرُ قُبيل الفجر بطلوعه، وحلول بركته، وسريان ضوئه، ويبدو من قوله: "لله أربعة من الدّهر" أنّ هذا الاحتفال كان يمتدّ لأربعة أيّام.

وقد أبدى الأندلسيّون كغيرهم من الشّعوب الإسلامية اهتمامًا كبيرًا، وفرحًا شديدًا بحلول شهر رمضان المبارك، فكانوا يُكثرون فيه من ألوان العبادات(١)، يلتزمون المساجد، ويقيمون اللّيل بالصّلاة، وتلاوة القرآن، وينشغلون في النّهار بإخراج الصّدقات، وتوزيعها على مستحقّيها، ويصوّر لنا ابن الخطيب تلك الشّعائر في مدحه للسّلطان أبي الحجّاج يوسف الأوّل النّصري(٢)، الذي لا يكلّ ولا يملّ من فعل الطّاعات في ذلك الشّهر الكريم، قائلا(٣): **(من الكامل)**

قَابَلْتَ شَهْرَ الصَّومِ مِنْكَ بِمَا بِهِ يَنْهَـلُّ مِـن فَضْـلِ الإلاهِ مَزِيـدُهُ

(١) يُنظر في مظاهر الاحتفال بشهر رمضان المبارك والعيدين بالأندلس: التّصوير الفنّي للحياة الاجتماعية في الشّعر الأندلسي، حسن أحمد النّوش، ط١، دار الجيل للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ١٩٠٠م، ص٢٢٠: ٢٢٨، وحياة الشّعر في نهاية الأندلس، حسناء بوزويته الطّرابلسي، ط١، دار محمّد علي الحامي، تونس، ٢٠٠١م، ص٢٣٥، والشّعر الاجتماعي في الأندلس في عصر بني الأحمر، بحث مقدّم من الباحثة/ عبير عبدالله الحسين؛ لنيل درجة الماجستير في اللّغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٧م، ص ١٤٦: ١٤٩.

(٢) هو يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر الأنصاري الخزرجي، أمير المسلمين بالأندلس، أبو الحجاج، كان وافر العقل، كبير الهيبة، فعرفت الملوك رجاحته، وأثنت على قصده، ت(٧٥٥هـ)، يُنظر ترجمته في: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢٨٠/٤.

(٣) ديوان لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق/ د. محمّد مفتاح، ط١، دار الثّقافة- الدّار البيضاء، ١٤٠٩هـ= ١٩٨٩م، ٢٩٣/١.

وَوَصَلْتَ تَمَّ اللَّيلِ مِنْهُ بِيَوْمِهِ ذِكْرًا يُبَلِّغُهُ القَبُولَ صُعُودُهُ
وَشَرَعْتَ للصَّدَقَاتِ أَصْفَى مَشْرَعٍ يَنْدَى عَلَى حَرِّ الصُّدُورِ بُرُودُهُ
فَجَزَاكَ بِالأَجْرِ الجَزِيلِ صَيَامُهُ وَحَبَاكَ بِالنَّصْرِ المُؤَزَّرِ عِيدُهُ

ثمّ ينال المسلم بعد ما أتمّه الله- تعالى- عليه في شهر رمضان من الصّيام، والقيام، والزّكاة، والصّدقات، وسائر العبادات والطّاعات فرحة عيد الفطر المبارك، ومن أبرز سُنن يوم العيد وتقاليده في الأندلس، وكافّة بلاد العرب والمسلمين، صلاة العيد، والإقبال على أدائها في الخلاء أو المساجد تضرّعًا وفرحًا، واصطحاب الأطفال والنّساء للمشاركة في تلك الأجواء السّعيدة، والحرص على ارتداء أبهى الحلل والملابس، إلى جانب عبارات التّهاني المتبادلة فيما بينهم، وقد صوّر هذا المشهد الجميل الشّاعر القاضي، محمّد بن عبدالله المعافري الإشبيلي[١]، الذي نظر إلى المصلّى، وراقه تجمّع النّاس على كلمة الحقّ والدّين، ومشاعر الفرح والسّرور، فأثار ذلك قريحته التي أرفدته ببعض الكلمات، فأنشدها قائلا[٢]: **(من الطويل)**

إِلَيكَ إِلَهَ الخَلْقِ قَامُوا تَعَبُّدًا وَذَلُّوا خُضُوعًا يَرْفَعُون لَكَ اليَدَا
بِإِخْلاصِ قَلْبٍ وَانْتِصَابِ جَوَارِحٍ يَخِرُّونَ للأَذْقَانِ يَبْكُونَ سُجَّدَا
نَهَارُهُمُ لَيلٌ وَلَيلُهُمُ هُدًى وَدِينُهُمُ رَعْيٌ وَدُنْيَاهُمُ سُدَى

وكان من مظاهر الاحتفال بعيد الفطر المبارك في مملكة غرناطة أن يسير السّلطان بين الرّعيّة في موكبٍ كبيرٍ من القادة والجنود، باسطًا كَفَّه للتَّقبيل، وحوله الأمراء، والوزراء، ووفود القبائل الذين جاءوا من كلّ مكانٍ لتهنئته، وتجديد العهد

(١) هو محمّد بن عبد الله بن محمّد بن عبد الله بن أحمد بن محمّد بن عبد الله بن العربي المعافري، الإشبيلي، القاضي، فقيه حافظ، وعالم متقن، وأصولي محدث مشهور، وأديب رائق الشّعر، ورئيس وقته، ولي قضاء إشبيلية بلده، وجرت له بعض الأمور هناك، فانتقل إلى قرطبة وحدّث بها مدة، ثمّ ولي القضاء بها عامين، ت(٥٤٣هـ)، يُنظر ترجمته في: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أبو جعفر الضبي ت(٥٩٩هـ)، ط دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٩٢: ٩٩.
(٢) بغية الملتمس، ص٩٧.

والبيعة له، وإظهار مشاعر الولاء والطّاعة لحكمه، ومن جانبه يغمرهم بجزيل نعمه، ووفير عطاياه، يصور ابن فركون ذلك المشهد قائلا[1]: **(من الكامل)**

قَدْ سَارَ شَهْرُ الصَّومِ أَكْرَمَ ظَاعِنٍ ... يُلْقِي أَحَادِيثَ العُلَى وَيُعِيدُهَا
وَأَتَاكَ عِيدُ الفِطْرِ أَشْرَفَ قَادِمٍ ... رَاقَ المَكَارِمِ عِنْدَهُ تَجْدِيدُهَا
قَدْ شَفَّهُ شَوقٌ لِحَضْرَتِكَ التي ... بِعَوَائِدِ الصُّنْعِ الجَمِيلِ يَعُودُهَا
فَطَلَعْتَ في أُفُقِ الخِلافَةِ آيَةً ... رَاقَتْ تَهَائِمُهَا بِهِ وَنُجُودُهَا
وَلَدَيْكَ مِن أُمَرَاءِ مُلْكِكَ أَوْجُهٌ ... غُرٌّ تَرُوقُ النَّيِّرَاتِ سُعُودُهَا
وَمَدَدْتَ لِلتَّقْبِيلِ كَفًّا لَمْ تَزَلْ ... تَنْهَلُّ فَوقَ الآمِلِينَ عُهُودُهَا
أَوْلَيتَ أَحْرَارَ القَبَائِلِ أَنْعُمًا ... وَبَدَأْتَهَا وَنَدَا يَدَيكَ مُعِيدُهَا
فَأَتَتْ إِلَى تَجْدِيدِ بَيْعَتِكَ التي ... هَاذِي مَلائِكَةُ السَّمَاءِ شُهُودُهَا

وللاحتفال بعيد الأضحى المبارك، وإقامة شعائره عند الأندلسيين ملامحه الخاصّة، حيث يخرج السّلطان هذا اليوم في الصّباح الباكر؛ لأداء صلاة العيد بين الجماهير الغفيرة، وتحيط به كتائب جيشه، وفرسانه الشّجعان، يمشون في الطّرقات، وكأنّها حفلة استعراضيّة، يطلعون العالم من خلالها على قوّتهم وبسالتهم، وحرصهم الشّديد على تطبيق تعاليم دينهم، وتقديم أرواحهم في سبيل نصرته، وإعلاء رايته، وبعدها يأمر بنحر الأضاحي، وتوزيع لحومها على كافّة الفقراء والمحتاجين، متوسُّلا إلى ربّه تعالى، ومحتسبًا عنده الأجر والثّواب، ومؤمّلا الفوز بحظٍّ جزيلٍ من رضاه، وفي تصوير ذلك المشهد يقول ابن الجيّاب الغرناطي[2]: **(من الكامل)**

---

(١) هو أبو الحسين بن أحمد بن سليمان بن أحمد بن محمّد بن أحمد بن إبراهيم بن هشام القرشي، المعروف بابن فركون، وأبو الحسين اسمه لا كنيته، أدرك مكانة كبيرة في عهد يوسف الثّالث، إذ كان كاتب سره، وشاعر دولته، ومؤرخ أيامه، ت(بعد٨٢٠هـ)، يُنظر ترجمته في: مظهر النّور الباصر في أمداح الملك النّاصر، أبو الحسين بن فركون، تحقيق د. محمّد بن شريفة، ط١، مطبعة الصّباح الجديدة، الدّار البيضاء ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، ص٧، ويُنظر النّص في: ديوان ابن فركون، تحقيق/ د. محمد بن شريفة، ط١، أكاديمية المملكة المغربية، ١٤٠٧هـ= ١٩٨٧م، ص٢١٩، ٢٢٠.

(٢) هو علي بن محمّد بن سليمان بن علي بن سليمان، من أهل غرناطة، يكنى أبا الحسن ويعرف بابن الجيّاب، كان متفننًا في العلوم، إمامًا في البلاغة والأدب، شيخ طلبة الأندلس: رواية وتحقيقًا ومشاركةً في

يُهنيكَ عِيدُ النَّحْرِ بُوْرِكَ وَافِدًا حَيَّاكَ بِالتَّرحِيبِ والتَّسْهِيلِ
فَبَرَزْتَ للرَّحْمَنِ فِيهِ مُؤَمِّلا فَوزًا بِحَظٍّ مِن رِضَاهُ جَزِيلُ
فِي عَسْكَرِ النَّصْرِ الذِي أَفْعَالُهُ غَادَرْنَ كَيدَ الكُفْرِ فِي تَضْلِيلِ
فِيهِ الرُّمَاةُ قَسِيُّهُمْ عَرَبِيَّةٌ مَطَرَتْ بِمِثْلِ حِجَارَةَ السّجِّيلِ
حَتَّى انْتَهَيْتَ إلى مُصَلاهُ ضُحًى فِي مَحْفَلِ التَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ
وَفَّيْتَ حَقَّ صَلاتِهِ مُتَوَسِّلا مِنْهَا بِسَعْيٍ صَالِحٍ مَقْبُولِ
وَأَرَقْتَ فِيهِ دَمَ الأَضَاحِي سَالِكًا مَا سَنَّهُ للخَلْقِ خَيْرُ رَسُولِ
وَأَفَضْتَ مِن صَدَقَاتِ جُودِكَ شِرْعَةً هِيَ آى ظِلٍّ فِي الحِسَابِ ظَلِيلِ

ونقف عند ذي الوزارتين لسان الدّين بن الخطيب على عادةٍ أخرى من أبرز عادات حكّام الأندلس في عصره، ألا وهي، إصدار العفو عن بعض المذنبين؛ فقد حرصوا عليها كمظهر من مظاهر الاحتفال بعيد الأضحى المبارك، حتّى تكتمل فرحة الشّعب في ذلك اليوم السّعيد، فيبدون وكأنّ شبابهم قد عاد إليهم بعد أن شيّبتهم الهموم والأحزان، يقول مهنّئًا السّلطان[1]: **(من الكامل)**

بُشْرَاكَ إنَّ اللهَ أَكْمَلَ عِيدَنَا بِالعَفْوِ مِنكَ وَمِنهُ بِالغُفْرَانِ
عِيدٌ أَعَادَ عَلَى الزَّمَانِ شَبَابَهُ فَاعْجَبْ لأَشْمَطَ عِيدَ فِي رَيْعَانِ[2]

والواقع أنّ الأضحية شغلت المجتمع الأندلسيّ، خاصّته وعامّته، أغنياءه وفقراءه الذين لا تسعفهم القدرات الماليّة، فكانت كلّ أسرة تحرص على شراء كبش العيد؛ لتسلك في نحره سنّة النّبي المصطفىﷺ، ولعلّ هذا ما يُفسّر لنا لجوء بعض الشّعراء إلى استجداء خروف العيد، أمثال أبي بكر، أحمد بن محمّد بن الأبيض الإشبيلي، أحد شعراء دولة الموحّدين، الذي نظم قصيدة مستقلّة، يصف فيها خروفًا مستجدى

كثير من العلوم، قائمًا على العربية واللّغة، إمامًا في الفرائض والحساب، عارفًا بالقراءات والحديث، متبحّرًا في الأدب والتاريخ، ت(٧٤٩هـ)، ينظر ترجمته في: الإحاطة ٩٩/٤، ويُنظر النّص في: ديوان ابن الجيّاب الغرناطي، تحقيق/ د. فوزي عيسى، ط١، مكتبة الآداب- القاهرة، ٢٠١٦م، ص٣٣٦.

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ٥٧٨/٢.

(٢) الأشمط: من اختلط سواد شعره ببياضه، لسان العرب، لابن منظور، ت(٧١١هـ)، تحقيق/ عبد الله الكبير، ومحمّد أحمد حسب الله، وهاشم محمّد الشاذلي، ط دار المعارف- القاهرة، د.ت، مادّة (شمط)، ٤/ ٢٣٢٦.

ليضحّي به في العيد، إذ يقول مستهلا بالحديث عن الخمر على عادة الشّعراء القدامى[١]: **(من الوافر)**

أَتَتْكَ الخَمْرُ يَا عِيدَ الأَضَاحِي ... كَأَنَّ شُعَاعَهَا قَبَسٌ مَلِيحُ
فَلا تَسْئَلْ عَنِ الحُجَّاجِ مَاذَا ... تُعَالِجُ وَالمَطِيُّ بِهَا رَزِيحُ
وَلَكِنْ عَنْ كُؤوسٍ مُتْرَعَاتٍ ... كَأَنَّ سَرِيُّ شَارِبِهَا نَضِيحُ
وَقَدْ أَعْدَدْتُهُ ذَبْحَا كَرِيمًا ... لِيَومِكَ وَالزَّمَانُ بِهِ شَحِيحُ
زَعِيمُ حَظِيرَةٍ مِن آل ضَأنٍ ... لَهُ فِي قَومِهِ نَسَبٌ صَرِيحُ

كذلك أبدى الأندلسيون اهتمامًا كبيرًا بخروف العيد، وأولوه رعايةً شديدةً، ممّا جعلهم يرتبطون به، ويتألّمون لموته، يتجلّى ذلك من خلال قصيدة لعبدالكريم القيسي[٢]، يرثي بها خروفه، ويصف ما قد أصابه لفقده، يقول[٣]: **(من الخفيف)**

أيَّ أُنْسٍ أيَّ صَبْرٍ أُلُوفِ ... يَرْتَجِي مِثْلِي بَعْدَ مَوتِ الخَرُوفِ؟!
وَلَقَدْ كَانَ لِي ضَحِيَّةَ عِيدٍ ... ذَاتَ قَرْنَينِ رَائِقَينِ وَصُوفِ
كَمْ شَعِيْرٍ أَطْعَمْتُهُ مَعَ فُولٍ ... كُلُّهُ مُحْكَمٌ وَكَمْ مِن رَغِيفِ
مَاتَ غَمًّا إِذْ كَانَ صَاحِبَ لَحْمٍ ... وَعَلَى ذِي الشَّحْمِ أَعْتَدادُ شُفُوفِ[٤]

يُظهر الشّاعر في هذه الأبيات مدى حزنه وألمه على موت خروفه، فبموته فقد الأنس ودواعي الصّبر، مبيّنًا أنّه كان قد أعدّه للأضحية، ذو قرنين رائقين، وصوف كثيف، مكتنزًا باللّحم والشّحم؛ لكثرة ما كان يقدّمه له من شعيرٍ، وخبزٍ، وفول، بدلالة

(١) زاد المسافر وغرّة مُحيّا الأدب السّافر، أشعار الأندلسيين من عصر الدّولة الموحّدية، لأبي بحر بن صفوان التّجيبي، ت (٥٩٨هـ)، إعداد وتعليق/ عبدالقادر محداد، ط دار الرّائد، بيروت، ١٩٨٠م، ص٦٦، ٦٧.

(٢) هو عبدالكريم بن محمّد بن عبدالكريم القيسي، من شعراء القرن التّاسع الهجري، ولد في مدينة بسطة، وحمل اسمها، فقيل له البسطي، كان أبوعبدالله البياني أستاذه، وقد أخذ عنه العلوم الدينيّة واللغويّة، وكان الشّاعر إمامًا لمسجد في مدينة برجة، وترجّح وفاته بعد منتصف القرن التّاسع الهجري، ينظر ترجمته في: ديوان عبدالكريم القيسي، تحقيق/ جمعة شيخة، ومحمّد الهادي الطّرابلسي، ط١، المؤسّسة الوطنية، بيت الحكمة- الرّباط، ١٩٨٨م، مقدمة الدّيوان، ص٧: ١٤.

(٣) ديوان عبدالكريم القيسي، ص١٦٤.

(٤) الشّفوف: نحول الجسم من الهم والوجد، لسان العرب، مادّة (شفف)، ٤/٢٢٩٠.

"كم" الخبريّة، ومن أجود الأنواع، بدلالة قوله: "كلّه محكم"، ثمّ نراه وقد بالغ في التّعبير عن حزنه، ولهفة نفسه على فراق هذا الحيوان، فيصرخ من داخله قائلا[١]:

لَهْفَ نَفْسِي وَلَهْفَ نَفْسِي عَلَيهِ ... أَلـفَ لَهْـفٍ مُضَـافَةً لأُلُـوفِ

أيُّ عَـيْشٍ يَطِيـبُ لِـي بَعْـدَه أوْ ... أيُّ عِيدٍ تَرَاهُ عَيْنِـي شَرِيفِ؟!

بَـانَ عَنِّـي وَحَمَّـل القَلْـبَ حُزنًـا ... دَائِمًـا لَـيسَ حِمْلُـهُ بِـالخَفِيفِ

ويزداد بكاء القيسي على خروفه كلّما تذكّر مرحه، وسرعة ركضه الذي يُشبه ركض المهر الصّغير، راجيًا من الله- تعالى- أن يخفّف عنه ألم هذا المصاب، فهو كافيه وحسبه لكلّ خطبٍ مخيف، ومشاركًا في بكائه أخوه الصّغير الضّعيف، بدلالة التّعبير عنه بصيغة التّصغير "أُخيَّ"، فكلاهما في نحيبٍ شديد، ولو استطاعا أن يفديا خروفهما لفدياه من مالهما بالتّالد والطّريف، يقول[٢]:

كَيــفَ لا أُكْثِــرُ البُكَــاءَ عَلَيــهِ ... وَلَكَـمْ لَبَّــى دَعْـوَتِي ذَا خُفُـوفِ؟!

مَارِحًـا مِثْـلَ المُهْرِ يُسْرِعُ رَكْضًـا ... قَـادَهُ قَصْـدُ السَّـقْيِ مِثْـلَ وَصِيفِ[٣]

حَسْـبِيَ اللهُ مِـن مُصَـابِي عَلَيـهِ ... فَهْـوَ حَسْـبِي لِكُـلِّ خَطْـبٍ مخُـوفِ

أَحْسَــنَ اللهُ اليَــوْمَ فِيــهِ عَزَائِــي ... وَعَــزَاءُ البَــاقِي أُخَــيَّ الضَّــعِيفِ

فَكِلانَـا لِفَقْـدِهِ فِـي نَحِيـبِ الشِّـيَاعِ ... مُسْـتَفِيضُ الشِّـيَاعِ عِنْـدَ اللَّفِيـفِ

لَــوْ تَــأتَّى فِــدَاؤُهُ لَفَــدَيْنَا ... هُ بِتَالِــدِ مَالِنَــا وَالطَّرِيــفِ[٤]

(١) ديوان عبدالكريم القيسي، ص١٦٤.
(٢) ديوان عبدالكريم القيسي، ص١٦٤، ١٦٥.
(٣) الوصيف: من قولهم وصف المهر إذا توجّه إلى حسن السّير وإجادته، لسان العرب، مادّة (وصف)، ٤٨٤٩/٦.
(٤) التّالد: المال القديم الأصلي الذي ولد عند صاحبه، والطّارف: ما استُحدِثَ منه، لسان العرب، مادّة (تلد)، ٤٣٩/١، ومادّة (طرف)، ٢٦٥٨/٤.

ثمّ يعود الشّاعر إلى صوابه في مسألة الفداء، إذ كيف يأتي الفداء في الموت وهو أمرٌ محتومٌ، لا مفرّ منه ولا حذر، ومن هنا يسلّم أمره لله- تعالى- واثقًا في رحمته، ومتمنِّيًا أن يعوضّه بالأحسن من ذلك الخروف، فيختم قصيدته قائلا[1]:

لَكِنِ المَوتُ مَالَنَا مِنْهُ بُدٌّ   كُلُّ نَفْسٍ تَذُوقُ كَأسَ الحُتُوفِ
وَأنَا فِي إخْلافِهِ بِسِوَاهُ   وَاثِقُ القَلْبِ بِالإلاهِ الرَّؤُوفِ
فَعَسَى أنْ يَمُنَّ لِي بِسِوَاهُ   غَيْرَ غَثٍّ وَغَيرَ جِسْمٍ نَحِيفِ

تبدو هذه القصيدة غريبة في غرضها، وصدورها من شاعر كعبد الكريم القيسي، بعد ما قرأناه في كتب التّراجم والتّاريخ، ووقفنا عليه في ديوانه من تفاصيل حياته، وما قاساه فيها من ألوان الظّلم، وعذاب الأسر، ولوعة الحنين، وقلّة ذات اليد، وممّا يزيد الأمر غرابة جملته المؤثّرة، الواردة في ثنايا حديثه عن خروفه: "مات غمًّا"، وطلبه الفداء له بالتّالد والطّريف، فأيّ غمٍّ وأيّ همٍّ يمكن أن يُصيبا هذا الحيوان؟! وما الذي يجعله يستحقّ من صاحبه الفداء؟! فالغالب أن يكون رثاء الخروف هنا غير مقصود لذاته، وإنّما اتخذه الشّاعر معادلا موضوعيًّا لحزنه على نفسه، وبكائه حالته التي وصل إليها مؤخّرًا، فيتصوّر نهايته المتوقّعة عبر موت خروفه، خالعًا عليه بعض صفات الإنسان، كالإصابة بالغمّ الشّديد، الذي ما إن تمكّن من قلب إنسان حتّى يودي بحياته، فالقيسي إذن هو الذي كاد يهلك غمًّا نتيجةً لما يحيط به وبوطنه من أحداثٍ جسام لا يقوى على تحمّلها، ولا يقبل التّعايش معها.

وبالإضافة إلى الاحتفال بهذه الأعياد الإسلاميّة وغيرها كالمولد النّبوي الشّريف، وليلة القدر، ويوم عاشوراء، كان الأندلسيّون يحتفلون بأعياد أخرى غير إسلاميّة، كنوعٍ من المشاركة الاجتماعيّة والإنسانيّة لأهل الذّمة، الذين يعيشون معهم على أرضٍ واحدةٍ، وتحت ظلّ سماءٍ واحدة، ممّا يؤكّد بدوره أنّ المجتمع الأندلسي قد

(١) ديوان عبدالكريم القيسي، ص١٦٥.

مثّل "نموذجًا تاريخيًّا للتّعايش مع إقرار الاختلاف، إذ لم يجبر الآخر على قبول دعوة الإسلام، بل قَبِل وجوده ضمن سلسلة من الحقوق والواجبات، أتاحت بموجبها لليهودي والمسيحي العيش بتجانس مع المسلم في مجتمعٍ واحد، تشيع فيه معالم الحضارة والتّسامح"(١).

ومن أبرز هذه الأعياد: عيد النّيروز، أو النّوروز، أو الينّير كما يطلق عليه بعض الأدباء والمؤرّخين، وهو عيد الرّبيع، اقترن الاحتفال فيه بالطّبيعة، ويرجع في أصله إلى بلاد فارس، إذ اتّخذه الفرس قديمًا لإحياء العام الجديد، وقد لاقى هذا العيد من الأندلسيين اهتمامًا كبيرًا، وجرت العادة في احتفالهم به أن يضعوا الحلوى في صورة مدائن ذات أشكالٍ جميلة، وكانت تُعجَن وتُنقَش على البيض المصبوغ بالحمرة أو الخضرة، وتُفرم بالزّعفران، ثمّ تُطبخ في الأفران، ويُجمع إليها أنواع الفاكهة كالقسطل، والجوز، واللّوز، والتّين، وغيرها، ثمّ تُقدَّم للضّيوف في هذه المناسبة، وتوزّع على الأطفال للفرح والسّرور بالعيد، كما كانوا يقومون بصنع الدّمى من الفخار والخزف المطلي على شكل حيوانات، بالرّغم من تحريم الفقهاء لذلك(٢).

ومن الشّعراء الذين صوّروا بعض المظاهر الاحتفاليّة في عيد النّيروز، الشّاعر الطّريف، والأديب البليغ، أبو عمران موسى الطّرياني، حين دخل على نفر من أكابر الدّولة، ونظر إلى واحدة من المدائن المصنوعة من الحلوى فراقت له، فطلب منه صاحب المجلس أن يصفها شعرًا ثمّ يأخذها، فقال واصفًا لها، ومتحدّثًا عن أيدي العذارى النّاعمات التي صنعتها(٣): **(من مجزوء الرجز)**

---

(١) يُنظر: مظاهر التّسامح الدّيني في الأندلس من خلال الأعياد والاحتفالات الدّينيّة، عبدالكريم فايزي، مجلّة الحكمة للدّراسات الإسلاميّة، الجزائر، العدد "٧"، ٢٠١٦م، ص١٩٦.

(٢) يُنظر في مظاهر احتفال الأندلسيين بهذا العيد: المغرب في حلى المغرب، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي، ت(٦٨٥هـ)، تحقيق/ د. شوقي ضيف، ط٣، دار المعارف – القاهرة، ١٩٥٥م، ٢٩٤/١، ونفح الطّيب ٦٣/٤، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي القلقشندي، ت(٨٢١هـ)، ط دار الكتب العلمية- بيروت، د.ت، ٤٤٦/٢، ومظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، د. أحمد محمّد الطوخي، ط١، مؤسّسة شباب الجامعة- الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص١٢٠، والتّصوير الفنّي للحياة الاجتماعية في الشّعر الأندلسي، ص٢٣٢: ٢٣٥.

(٣) الطّرياني: هو أبو عمران، موسى بن علي الطّرياني، يُنسب إلى طريانة المنارة التي أمام إشبيليّة على الجانب الغربي من ظهرها الأعظم، شيخٌ نحويٌّ، وأديبٌ ظريفٌ، حسن المعشرة، والاستكثار من ممازجة الشّباب، وهو عفيف لا يدين بالنّسيب، ولا يقع له النّظم إلا في النّادر والغريب، ت(٦٣٩هـ)، يُنظر ترجمته والنّصّ في: اختصار القدح المعلّي في التّاريخ المحلّي، ابن سعيد أبي الحسن المغربي، اختصره/ أبو عبدالله =

مَدِينَـــةٌ مُسَـــوَّرَهْ تَحَـارُ فِيهَـا السَّـحَرَهْ
لَـمْ تَبْنِهَـا إلا يَـدا عَـــذْرَاء أوْ مُخَـــدَّرهْ
بَـدَتْ عَرُوسًـا تُجْتَلَـى مِـن درمـكٍ مُزْعْفَـرَهْ[1]
وَمَـا لَهَـا مَفَـاتِح إلا البَنَـــان العَشَـــرَهْ

كما جرت العادة في هذا اليوم أيضًا أن يتبادل النّاس الهدايا فيما بينهم، وأن يجود السّلطان على رعيّته بجزيل الهبات والعطايا، ممّا ألهب قرائح الشّعراء، ودفعهم إلى نظم العديد من القصائد، لتهنئة الحكّام والمسؤولين، ومن المتألّقين في هذا الميدان، لسان الدّين بن الخطيب، إذ يقول مهنّئًا السّلطان يوسف الأول بنيروز عام سبعة وثلاثين وسبعمائة[2]: **(من الطويل)**

زَمَانُـــكَ أَفْـــرَاحٌ لَـــدَينَا وَأَعْيَـــادُ فَعِيـدٌ وَنَيْـرُوزٌ سَـعِيدٌ وَمِـيلادُ
تَـــزُورُكَ أَثْنَـــاءَ الزَّمَـــانِ كَأَنَّهَـــا عُفَـاةٌ تَرَجِّـي رَاحَتَيـكَ وَقُصَّـادُ
فَتُهْـدِي إلـى كُـلِّ مَقَـالا يَخُصُّـهُ فَمِنَّـا لَهَـا دُرٌّ وَمِـنْهُنَّ أَجْيَـادُ
لَقَدْ عَمَّ مِنْكَ الرِّفْدُ مَنْ جَاءَ قَاصِدًا نَوَالَـكَ حَتَّـى للمَوَاسِـمِ إِرْفَـادُ
وَيَهنِيْكَ نَيْـرُوزٌ سَـعِيدٌ قَـد انْقَضَـى أَتَتْـكَ عَلَـى آثَـارِهِ مِنـهُ أَعْـدَادُ
أَتَـاكَ عَلَـى عِلْمٍ بِجُودِكَ فـي الـوَرَى فَأَمَّلَ مِنْ جَدْوَاكَ مَا هُوَ يَعْتَادُ
وَمَـــا هُـــوَ إلا رَائِـــدٌ لِبَشَـــائِرٍ فَـلا زَالَ يَحْـدُوْهَا إِلَيـكَ وَيَقْتَـادُ

=ابن محمّد، تحقيق/ إبراهيم الأبياري، ط١، وزارة الثقافة والإرشاد القومي- القاهرة، ١٣٧٨هـ= ١٩٥٩م ، ص٢٠٢، والمغرب في حلى المغرب ٢٩٤/١، ونفح الطّيب ٦٣/٤.

(١) الدّرمك: فتات الزّعفران وغيره، أو دقيقه ونواعمه، لسان العرب، مادّة (درمك)، ١٣٦٧/٢.

(٢) ديوان لسان الدّين بن الخطيب ٢٧١/١.

وشارك أيضًا مسلموا الأندلس جيرانهم وأصدقاءهم من أهل الذّمة في الاحتفال بعيد "العنصرة"(١)، ويُطلق عليه حاليًا في إسبانيا "عيد سان خوان"، أي عيد ميلاد القديس خوان، وهو النّبي يحيى بن زكريا- عليهما السّلام- طبقًا لما أفاد به بعض المؤرّخين قائلا: "يوم العنصرة يوم مشهور ببلاد الأندلس، وهو موسم للنّصارى، كالميلاد وغيره، وهو اليوم الرّابع والعشرون من حزيران، فيه ولد يحيى بن زكريا عليهما السلام"(٢)، ويسمّى هذا اليوم عندهم أيضًا بيوم "المهرجان"، على حدّ قول صاحب النّفح: "يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة، الكائن في ست بقين من شهر يونية الشّمسي من شهورهم الرّومية"(٣).

وسمّي هذا اليوم بالعنصرة نسبة إلى شعلة النّار التي كانوا يُشعلونها في الطّرقات، ويقفزون فوقها مبتهجين مسرورين، ونظرًا لاهتمامهم الشّديد وتعلّقهم بالمظاهر الاحتفالية لذلك العيد، فقد كانوا يترقّبون موعده، ويسعدون بمجيئه، حتّى انعكس ذلك على أمثالهم العامّيّة، فقالوا: "الكبش المصوَّف لا يقفز العنصرة"(٤)، أي أنّ الكبش الذي عليه صوف كثيف لا يقفز فوق شعلة العنصرة؛ لأنّه إذا قفز فوقها احترق، ويبدو أنّ هذا العيد أيضًا كان مرتبطًا عندهم بالطّبيعة، التي شاركتهم جلّ أحوالهم، يدلّ على ذلك قول ابن خاتمة الأنصاري(٥): **(من الكامل)**

أهْـلا بِأيَّـامِ الرَّبِيـعِ وَطِيبِهَـا أنْـسِ الخَلِيـعِ وَنُزْهَـةِ المُتَبَتِّـلِ

زَمَـنٌ أرَقُّ مِـن الـوِدَادِ شَـمَائِلا وَألـذُّ مِـن عَصْـرِ الشَّـبَابِ الأوَّلِ

(١) يُنظر في هذا العيد ومظاهر احتفال الأندلسيين به: صبح الأعشى ٢/ ٤٥٥، والتّصوير الفنّي للحياة الاجتماعية في الشّعر الأندلسي، ٢٣٦: ٢٣٨، والأعياد في مملكة غرناطة، أحمد مختار العبادي، مجلّة المعهد المصري للدّراسات الإسلامية في مدريد، مجلّد "١٥"، عام ١٩٧٠م ، ص١٤٠.

(٢) وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، شمس الدّين بن خلّكان، ت(٦٨١هـ)، تحقيق/ د. إحسان عبّاس، ط١، دار صادر – بيروت ١٩٩٤م، ٢٢٧/٧.

(٣) نفح الطّيب ١٢٨/٣.

(٤) أمثال العوام في الأندلس، لأبي يحيى أحمد الزّجالي القرطبي، ت(٦٩٤هـ)، تحقيق/ د. محمّد بن شريفة، منشورات وزارة الدّولة، المملكة المغربية، د.ت، ٨٥/٢.

(٥) ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ص٤٢.

تُـذْكِي بَلابِلُـهُ البَلابِـلَ لَوْعَـةً وَلَـرُبَّ بِلْبَـالٍ يَهِـيجُ لِبُلبـلِ

أعْجِبْ بِـهِ مِـنْ مِهْرَجَـانٍ قَـائِمٍ بَـينَ البَسِـيطَةِ وَالحَيَـا المُتَهَلِّـلِ

وقد نقلت المصادر الإسبانيّة أخبارًا كثيرة عن احتفال المسلمين بعيدهم المهرجاني الكبير، وعكست أشعارهم حالة الودّ المشترك بين هؤلاء المحتفلين المتجاورين، ومن ذلك قول أحدهم(١):

تَـــأتِي أيَّـــامٌ وَتَمْضِـــي أيَّـــام

كَـــانَ عِيـــد القِـــدّيس خَـــوان

الـــــذي يَحْتَفِـــــلْ بِـــــه

المِسِـــــــحِيُّون والمُسْـــــــلِمُون

وهناك قصيدة أخرى تعكس هذا الوئام، وتدلّ على مدى تعاطف المسلمين وسلاطينهم مع أصحاب الدّيانات المغايرة، تقول(٢):

كَـانَ ذَلِـكَ فِـي عِيـدِ القِـدِّيسِ خَـوان

وَكَانَـــتْ هُنَـــاكَ حَفْلَـــةً كَبِيـــرَةً

أقَامَهَـــــــا المُسْـــــــلِمُونَ

فِـــــي غَوطَـــــةِ غِرنَاطَـــــة

كما ساعدتهم عناصر الطّبيعة الجميلة، بأشجارها الوارفة، وأزهارها المتفتّحة، وهوائها العليل أن يقيموا في يوم المهرجان كثيرٍ من المسابقات والألعاب، مرتدين

(١) مسلمو مملكة غرناطة بعد عام ١٤٩٢م، خوليو كارو باروخا، ترجمة/ جمال عبدالرحمن، ط١، المجلس الأعلى للثّقافة، مصر، ٢٠٠٣م، ص١٤٥.
(٢) مسلمو مملكة غرناطة بعد عام ١٤٩٢، ص١٤٥.

أفضل ملابسهم وأجملها، من بينها إقامة سباق الخيل، والتّلويح بالسّيف، وألعاب المبارزة، يشير إلى ذلك قول أحد الشّعراء[١]:

فـــي صَـــبَاحِ عِيـــدِ القـــديس خـــوان

عِنْـــــــدَ طُلـــــــوعِ النَّهَـــــــار

يُقِـــيمُ المُســـلِمونَ احتِفَـــالا كَبِيـــرًا

فـــــــي مَـــــــرجِ غِرْنَاطَـــــــة

يُحَرّكُـــــــــونَ أحْصِـــــــــنَتِهِمْ

وَيَلْعَبُـــــــــونَ بِسِـــــــــيُوفِهِمْ

عَلَيهَـــــــا رَايَـــــــاتٍ قَيّمَـــــــة

وبعد، فهذه المشاركات الواسعة التي قام بها مسلموا الأندلس تجاه أهل الذّمة في أعيادهم واحتفالاتهم الدّينيّة، إنّما يدلّ على عمق التّواصل الاجتماعي بين العناصر السّكانيّة المختلفة، وتغلغل العادات والتّقاليد في نفوسهم، يؤيّد ذلك أنّ الفقهاء وأهل العلم تدخّلوا لمنع مثل هذه الاحتفالات التي عدّوها تشبّهًا باليهود والنّصارى، إلا أنّ محاولاتهم كثيرًا ما باءت بالفشل.

كذلك كانت تُقام الاحتفالات في الأندلس لأمور دنيويّة، سياسية كانت أو اجتماعية، كالاحتفال بالانتصارات العسكرية والفتوحات، أو المناسبات الأسريّة، التي تتكرّر في حياتهم اليوميّة، وبخاصّة ما يتعلّق منها بالأسرة الحاكمة، كمولد الأمراء، وإعذار "ختان" أبناء الحكّام والسّلاطين والوزراء وكبار رجال الدّولة، وزواجهم، فتُمدّ فيها الولائم، وتُلقى على شرفها القصائد، وعند الاحتفال بمثل هذه المناسبات كان

(١) الحروب الأهليّة في غرناطة، (من أهل القرن العاشر الهجري/السّادس عشر الميلادي)، خينيس بيريث دي إيتا، ترجمة/ مروة محمّد إبراهيم، ط١، المجلس الأعلى للثّقافة، مصر، ٢٠٠٩م، ١٣٧/١.

النّاس يهتمّون بنظافة أجسادهم، ويأخذون أغلى زينتهم، ويقسّمون الفرحة فيما بينهم، مهما اختلفت طبائعهم، وتباينت عقائدهم.

ويُعدّ من أروع ما سجّله الشّعراء من مظاهر الاحتفال بمناسبة الزّواج قول ابن فركون في قصيدة ألقاها بحفل زواج السّلطان يوسف الثّالث، المُقام بمدرّج السّبيكة، وبحضور أشراف أهل الأندلس، واصفًا بعض ما كان يتمّ في تلك المناسبة السّعيدة من عاداتٍ وتقاليد، كسباق الخيل، وألعاب الفروسيّة، فرحًا وابتهاجًا[1]: **(من الكامل)**

هَـذِي السَّـبِيكَةُ مَلْعَبُ الخَيـلِ التـي ... أَلقَــتْ بِأَفْئِــدَةِ العُــدَاةِ خَبَالَهَــا

إِنْ جُـرِّدَتْ بِـيضُ السُّـيُوفِ لِغَـارَةٍ ... لَبِسَتْ مِن النَّقْعِ المُثَارِ جَلالَهَا

فَإِذَا المَوَاكِبُ فِي مدَاهَا اسْتَشْرَفَتْ ... مَا للكَوَاكِبِ فِي السَّمَاءِ وَمَالَهَا

يَـا حُسْـنَهُ حَطَبًـا وَيَـا عَجَبًـا إِذَا ... جَالَتْ بِـهِ خَيلُ السِّبَاقِ مَجَالَهَا

يُـذْكِي قُلُـوبَ الحَاسِـدِينَ مَشَـاعِلا ... وَالنَّـارُ مَـا أَبْـدَتْ بِـهِ إِشْـعَالَهَا

للهِ كَـــمْ صُـــوَرٍ بَـــهِ مجلــوَّةٍ ... كَادَتْ تُحَقِّقُ فِي العُيُونِ مِثَالَهَا

وكان من أبرز عادات الأندلسيين في الزّواج المغالاة في المهور، والمبالغة الشّديدة في إعداد البنات، وتكاليف الزّفاف، ممّا أثار حفيظة بعض الأدباء والفقهاء، ومن بينهم: أبو القاسم السّهيلي[2] الذي نصحهم بالعدول عن ذلك، والتّحلي بالتّقى، فتوجّه إليهم قائلا[3]: **(من السريع)**

(١) ديوان ابن فركون الغرناطي، ص١١٩.
(٢) هو أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن احمد بن أبي الحسن، واسمه: أصبغ بن حسين بن سعدون، نشأ بمالقة، وبها تعرف، وفي أكنافها تصرف؛ حتى بزغت في البلاغة شمسه، ونزعت به إلى مطامح الهمم نفسه، ت(٥٨١هـ)، يُنظر ترجمته في: المطرب من أشعار أهل المغرب، أبو الخطّاب عمر بن دحية الكلبي، ت(٦٣٣هـ)، تحقيق/ أ. إبراهيم الأبياري، د. حامد عبدالمجيد، د. أحمد أحمد بدوي، راجعه/ د. طه حسين، ط دار العلم للجميع، بيروت- لبنان، ١٣٧٤هـ= ١٩٥٥م، ص٢٣٠.
(٣) المطرب من أشعار أهل المغرب، ص٢٣٨.

والمَهر مَهْرَ العُرس لا تُغْلـه فإنّــه مهمــا غَــلا مَهْرمَــهْ

مَن دَمَـه صان لحِرْزِ التُّقـي لم يَخْش من لَوْم ولا مَنْدمه

وكانوا يحرصون في حفلات زواجهم أيضًا على إقامة مجالسٍ للغناء والسّمر، والموسيقى والرّقص، حيث يحضر المغنّون والرّاقصون من كلّ حدب وصوب لإحياء تلك الحفلات، وإطراب الحاضرين بأعذب الألحان والنّغمات، وإتحافهم بأغرب وأخفّ الحركات[١]، وفي ذلك يقول ابن فركون من قصيدة طويلة، نظمها بمناسبة حفل زفافٍ لأحد أصدقائه[٢]: **(من الخفيف)**

وَأوَانُ الإمــــــلاكِ أسْــــــعَدُ آتٍ بِوجُــوهِ القَبُــولِ والإقْبَــالِ

قَــدْ نَعِمْنَــا فِيــهِ بِلَيلَــةِ أُنْــسٍ عَرَّفَتْنَــا عَــوَارِفَ الإفْضَــالِ

لَسْتُ أنْسَى الإحْسَانَ وَالحسْنَ مِنْهَا شَـفَعَتْ لِـي الجَمَـالَ بِالإجْمَـالِ

وَأفَــادَتْ سَــمْعِي وَكَفِّــي غِنَــاءً وَغِنًــى رَاقَنِــي وَنَعَّــمَ بَــالِ

صَــوتَ شَــادِنْ عَلَــى تَــرَنُّمِ عُــودٍ يَهَبُ السُّولَ مِنْـهُ قَبْلَ السُّؤَالِ

عُــودُهُ نَــاطِقٌ بِغَيْــرِ لِسَــانٍ بِخَفِــيِّ الضَّــمِيرِ دُونَ مَقَــالِ

نَغَمَــاتٌ عَــن المَرِينِــي تُــرْوَى وَهْـيَ بِالمُوصِـلِيّ ذَاتُ اتِّصَـالِ

وَلَكَــمْ رَاقِصًــا يَــرُوقُ انْعِطَافًــا كَقَضِـيبٍ فــي دَوحِــهِ مَيَّــالِ

طَرَبًــا مَــالَ عَطْفُــهُ وَتَثَنَّــى كَالرُّبَـا فـي يَـدِ الصَّـبَا وَالشَّـمَالِ

فالشّاعر يصوّر ما كان يدور في ذلك العُرس من مراسمٍ جميلة، واحتفالاتٍ باهظة، تتنوّع ما بين الغناء والطّرب، والتّمتّع بأنغام الموسيقى، وآلاتها الرّنّانة، التي

(١) يُنظر في مجالس الطّرب والرّقص والغناء التي كان يعقدها الأندلسيون خلال احتفالاتهم بالزّواج وغيره: التّصوير الفنّي للحياة الاجتماعية في الشّعر الأندلسي، ص٢٤٢: ٢٧٦، والأعياد في مملكة غرناطة، ص١٤٤، ١٤٥، والشّعر الاجتماعي في الأندلس في عصر بني الأحمر، ص١٦٢: ١٦٥.
(٢) ديوان ابن فركون الغرناطي، ص٣١٧، ٣١٨.

تكاد تنطق بغير لسان، مشيرًا إلى آلة العود التي اشتهرت كثيرًا ببلاد المغرب والأندلس في ذلك الحين، فينسبها في جودتها وحسن أدائها إلى بني مرين، الذين ولعوا بهذا الفنّ، حتّى قيل إنّهم كانوا يستخدمون الموسيقى كوسيلة لعلاج بعض الأمراض النّفسيّة والعصبيّة، فيطلب الأطبّاء من الموسيقيين الحضور إلى المرضى مرّة أو مرّتين بالأسبوع؛ لما يرون لها من أثر كبير في انشراح الصّدر، وانتعاش الرّوح، ممّا يقوّي بدوره ضربات القلب، ويساعد الأعضاء الجسديّة على تأدية وظائفها بأحسن ما يكون(١)، ويجعلها أيضًا ذات صلة وثيقة بأبي اسحاق الموصلي(٢)، الذي تفرّد بالغناء وصناعته في زمنه، وكان على دراية واسعة بالموسيقى واللّغة، وفنونهما المختلفة، ولا ينسى الشّاعر الحديث في تلك المقطوعة عن فنّ الرّقص، وانعطاف القائمين به يمينًا وشمالا بخفّة ورشاقةٍ بالغَين، حتّى صاروا كفروع الأشجار، يحرّكها نسيم الهواء كيفما يشاء.

وفي ديوان ابن الجيّاب الغرناطي، ما يُطلعنا على عادةٍ أخرى من عادات الأندلسيين في تلك المناسبة، لا تزال باقية في مجتمعاتنا العربيّة حتّى يومنا هذا، إذ تجلس العروس على منصّة عالية، وقد ارتدت ملابس عرسها، ووضعت زينتها، وتألّقت في جمالها، حتّى بدت غادة بين قريناتها اللواتي يقفن بجوارها، ويغنّين لها، فنراه يشبّهها تارةً بالشّمس، يلوح شعاعها السّاطع بأشرف الأبراج، وتارةً أخرى بالقمر المنير، وكأنّ هذا البلد السّعيد "غرناطة" قد حباه الزّمان بقمرين، اجتمعا في آنٍ واحدٍ، وتقابلا بسناهما الوهّاج، فامتلأ الكون نورًا وبهاءً، فيقول ممّا كُتِب على تاج كرسي العروس(٣): **(من الكامل)**

(١) يُنظر: مظاهر الثّقافة المغربية، دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني، د. محمّد بن أحمد بن شقرون، ط دار الثّقافة، الدّار البيضاء- المغرب، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٥م، ص٢٢٥، ٢٢٦.
(٢) هو إسحاق بن إبراهيم بن ماهان التّميمي الموصلي النّديم، كان رأسًا في صناعة الطَّرب والموسيقى، وكان له يد طولى في الفقه والحديث وعلم الكلام، ت(٢٣٥هـ)، يُنظر ترجمته في: وفيّات الأعيان ٢٠٢/١.
(٣) ديوان ابن الجيّاب الغرناطي، ص٩٨.

سَحَرَ العُيُونَ جَمَالُ هَذَا التَّاجِ لَمَّا حَكَاهُ مُذَهَّبُ الدِّيبَاجِ

وَعَلَى مَنَصّتِهِ العَرُوسُ كَأَنَّهَا شَمْسٌ تَلُوحُ بِأَشْرَفِ الأَبْرَاجِ

بَلَدٌ بِهِ القَمَرَانِ قَدْ جُمِعَا مَعًا وَتَقَابَلا بِسَنَاهُمَا الوَهَّاجِ

ومن التّقاليد الأسريّة والاجتماعيّة التي حرص عليها مسلمو الأندلس، احتفالهم بإعذار أبناءهم؛ تطبيقًا لسنّة النّبيﷺ، وتأكيدًا لفرحتهم بقدوم الولد، الذي يعني ولا سيّما في نظر الأسر الحاكمة استمرارية الحكم وبقائه، فكانت مناسبة سعيدة، تُقام لأجلها الولائم الضّخمة، وتُبذَل النّفقات الباهظة[١]، ومن أبرز النّماذج الشّعرية التي تصوّر ذلك قصيدة ابن زمرك[٢] التي أنشدها في حفل إعذار حفيد السّلطان الغني بالله، حيث يقول مادحًا ومهنّئًا[٣]: **(من الطويل)**

زَجَرْنَا بِنَصْرٍ نَصْرَ مُلْكِ مُحَمَّدٍ أَبِيهِ وَصِدْقُ الفَالِ بِالشَّرْعِ وُكِّدَا

وَأَطْلَعْتَ يَا شَمْسَ الخِلافَةِ بَدْرَهُ فَأَطْلَعَ فِي آفَاقِ مُلْكِكَ فَرْقَدَا

أَقَمْتَ لَهُ- وَالحَمْدُ للهِ- سُنَّةً مُؤَكَّدَةً تُرْضِي النَّبِيَّ مُحَمَّدَا

هَنِيئًا هَنِيئًا إِنَّهُ خَيْرُ سُنَّةٍ أَقَمْتَ بِهَا لِلدِّينِ وَالفَخْرِ مُنْتَدَى

دَعَوْتَ لَهَا الأَشْرَافَ مِن كُلِّ وُجْهَةٍ وَنَادَاهُمُ التَّحْضِيضُ فَابْتَدَرُوا النِّدَا

وَظَلَّلْتَ يَوْمَ العَرْضِ أَشْرَفَ قُبَّةٍ تَجَلَّى بِهَا الإِحْسَانُ مِن أُفُقِ الهُدَى

(١) يُنظر في مظاهر الاحتفال بالإعذار عند أهل الأندلس: مع شعراء الأندلس والمتنبّي، سير ودراسات، إميليو غرسيه غومث، ترجمة/ د. الطّاهر أحمد مكي، ط٧، دار الفكر العربي، مصر، ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م، ص٢٨٩، والتّصوير الفنّي للحياة الاجتماعية في الشّعر الأندلسي، ص١٦١: ١٦٩، والشّعر الاجتماعي في الأندلس في عصر بني الأحمر، ١٥٦: ١٦٢.

(٢) هو محمّد بن يوسف بن محمّد بن أحمد بن محمّد بن يوسف الصريحي، أبو عبد الله، ويُعرَف بابن زمرك، أصله من شرق الأندلس، وكان وزيرًا من كبار الشّعراء والكتاب بها، ت(نحو٧٩٣هـ)، الإحاطة ١٩٦/٢.

(٣) ديوان ابن زمرك الأندلسي، تحقيق/ د. محمّد توفيق النّيفر، ط١، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧م، ص١٣٥، ١٣٦.

وَنَــالوا جَمِيعًــا مِــن نَوَالِــكَ أَنْعُمًــا وَجَــاءُوكَ يَــومَ العَـرْضِ أَوْحَـدَ أَوْحَـدَا

ومن مظاهر الاحتفال بإعذار الأمراء التي صوّرها ابن زمرك في ديوانه، استدعاء المهرّج أو البهلوان، وهو شخص يمتلك قدرة جسديّة فائقة، تمكّنه من القيام ببعض الحركات الخفيفة المتنوّعة في لمح البصر، والسّير على خيطٍ دقيقٍ متوهّم لا يكاد يُرَى، ثمّ الارتفاع بخفّة شديدة إلى أعلى، وكأنّه طير في صورة آدمي، يحلّق بجناحيه في فضاء الكون، يقول[1]: **(من الكامل)**

وَمُنَوَّعِ الحَرَكَاتِ قَدْ رَكِبَ الهَوَا يَمْشِــي عَلَــى خَــطٍّ بِــهِ مُتَــوَهَّمِ

فَإِذَا هَوَى مِنْ جَوِّهِ ثُمَّ اسْتَوَى أَبْصَرْتَ طَيْرًا حَلَّ صُورَةَ آدَمِي

يَمْشِي عَلَى فَنَنِ الرِّشَاءِ كَأَنَّـهُ فِيــهِ مُسَــاوِرُ ذَابِــلٍ أَوْ أَرْقَــمِ

يُلحظ ممّا سبق الاهتمام البالغ للشّعب الأندلسيّة بفنّ الرّقص، إذ كانوا يعدّونه من مكمّلات مجالس الطّرب والغناء، وقد وصف لنا شعرهم في مراحله المختلفة أنواعًا كثيرة لهذا الفنّ، ومن ذلك ما نظمه الأديب الشّاعر يحيى بن بقي الطّليطلي[2] في غلام مغنٍّ قام يرقص بأداء رائع، وحركات لطيفة، يعتمد فيها على تحريك أكمامه باهتزازاتٍ خفيفة ومتتابعة، وكأنّها خفقات قلوب الحاضرين، ثمّ يمرّ يلتقط الزّجاج المترامي على الأرض بذيل ملابسه في رقّة وانسيابيّة متناهيتين، كما يمرّ النّسيم على حباب الماء، ممّا يثير الدّهشة والإعجاب، فيقول[3]: **(من الكامل)**

---

(١) ديوان ابن زمرك، ص٤٨٧.

(٢) هو أبو بكر، يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن بقي الطّليطلي، وينسب إلى سرقسطة إشبيلية وسلا في المغرب، ووادي آش، الشّاعر المشهور، صاحب الموشّحات البديعة، بارع الأدب، سيّال القريحة، كثير الشّعر جيّده في جميع أنواعه، ت(٥٤٠، وقيل ٥٤٥هـ)، يُنظر ترجمته في: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، أبو نصر الفتح بن خاقان، ت(٥٢٩هـ)، تحقيق/ د. حسين يوسف خريوش، ط١، مكتبة المنار، الأردن، ١٤٠٩هـ= ١٩٨٩م، ص٩١٩.

(٣) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ص٩٢٥.

بأبي قَضِيبُ البَانِ يُثنِيهِ الصّبَا عِوَضَ الصّبَا فِي الرَّوضَةِ الغَنَّاءِ
نَادَمْتُهُ سِحْرًا فَأَمْتَعَ مَسْمَعِي بِتَرَنُّمٍ كَتَرَنُّمِ الوَرْقَاءِ
وَكَأنَّمَا أكْمَامُهُ فِي رَقْصِهِ تَتَعَلَّمُ الخَفْقَانَ مِن أحْشَائِي
وَيَمُرُّ يَلْتَقِطُ الزُّجَاجَ بِذَيْلِهِ مَرَّ النَّسِيمِ عَلَى حُبَابِ المَاءِ

كذلك من التّقاليد الأندلسيّة المتّبعة في الاحتفال بهذه المناسبة، أن يدعو صاحب الإعذار من أحد أقاربه أو أصدقائه مَن يثق به، ويكلفه بمراقبة الحجّام القائمين بإعذار طفله؛ لضمان تأديتها على أحسن ما يكون، وممّن قام بتلك العادة من شعرائنا، الوزير لسان الدّين بن الخطيب، حين دعا صديقه الفقيه أبا يحيى البلوي؛ لمشاركته في خدمة إعذار ولديه "عبدالإله، وقمر العلا"، ولكن لم يسعفه الزّمان بالحضور، وحال بعد المسافة دون إجابة دعوته، فنظم قصيدة طويلة، يعتذر فيها لصديقه عن خدمة الإعذار، ويتقدّم له بخالص المباركات والتّهاني، وأجمل عبارات المدح والثّناء، إذ يقول[1]: **(من الكامل)**

لا عُذْرَ لِي عَنْ خِدْمَةِ الإعْذَارِ وَلئن نَأى وَطَنِي وَشَطَّ مَزَارِي
أوْ عَاقَنِي عَنْهُ الزَّمَانُ وَصَرْفُهُ تَقْضِي الأمَانِي عَادَة الإعْصَارِ
قَدْ كُنْتُ أرْغَبَ أنْ أفُوزَ بِخِدْمَتِي وَأحُطَّ رَحْلِي عِنْدَ بَاب الدَّارِ
بَادِي المَسَرَّةَ بِالصَّنِيعِ وَأهْلِهِ مُتَشَمِّرًا فِيهِ بِفَضْلِ إزَارِي
يَا مَنْ لَهُ الشَّرَفُ القَدِيمُ وَمَنْ لَهُ الْـ حَسَبُ الصَّمِيمُ العَدَّ يَومَ فِخَارِ
يُهْنِيكَ مَا قَدْ نِلْتَ مِنْ أمَلٍ بِهِ فِي الفَرْقَدَينِ النَّيِّرَينِ لَسَارِي
نَجْلاكَ قُطْبَا كُلُّ تَجرٍ بَاذِخٍ أمَلانِ مَرْجُوَّانِ فِي الإعْسَارِ

(١) نفح الطّيب ٦/٦٢، ٦٣.

عَبْـدُ الإلَــهِ وَصِــنوهُ قَمَــرُ العُــلا فَرْعَـانِ مِـن أصْـلٍ زَكَـا ونِجَـار[١]

هذا فيما يتعلّق بإعذار الذّكور من أولاد الحكّام، وذوي المناصب، والأدباء وغيرهم، أمّا إعذار الإناث فلم أجد له إشارة أو ذكرًا فيما رجعت إليه من مصادر تاريخية، ونصوص أدبية، وقد يعود السّبب في ذلك إلى أنّ هذه العادة لم تكن موجودة بالأندلس في تلك الحقبة من الزّمن، أو أنّها كانت تُقام لديهم في جوٍ من السّرّية والكتمان، بحيث لا تجمّع خلان، ولا موائد طعام، ولا مراسم احتفال.

أمّا الأعياد الشّعبيّة التي عرفها الأندلسيّون، وشارك في الاحتفال بها كافّة العناصر السّكانيّة، فيأتي في مقدّمتها "عيد العصير"، الذي كان يُقام عند جني محصول العنب وعصره، وكان الأهالي يغادرون منازلهم، ويتوجّهون إلى حدائق الكرم لبضع أيّام؛ وهم يرتدون أجمل ملابسهم، ويقبلون جميعًا رجالا ونساءً وأطفالا على الرّقص والغناء، في جوٍ يسوده الضّحك والمرح والرّقص والغناء، والحركة والنّشاط[٢]، ولا أدلّ على الاحتفال بعيد العصير، وجني محصول العنب في الحقول من قصيدة عبدالكريم القيسي، التي وصف فيها مجموعة من الفواكه، قائلا[٣]: **(من السريع)**

بِالدّمنــةِ الغَـرّاءِ مِـن بَسْـطَةَ أدْوَاحُ أعْنَــابٍ تَفُــوقُ العُيُــونْ

تَلَوَّنَـــتْ فِيهَـــا عَنَاقِيــدُهَا وَأظْهَرَتْ للحُسْنِ شَتَّى الفُنُـونْ

قَالُوا هِيَ الشَّـهْدُ لَدَى ذَوْقِهَا طِيبًـا فَقُلْـتُ الشَّــهْدُ وَاللهِ دُونْ

وَتِينِهَــا الأيُّــوبِي فــي طِيْبِــهِ وَحُسْــنِهِ لَــيْسَ يُسَــاوِيهِ تِــينْ

(١) النّجار: الأصل والحسب، لسان العرب، مادّة (نجر)، ٦/٤٣٥٠.
(٢) يُنظر في مظاهر الاحتفال بعيد العصير بالأندلس: الإحاطة ١/ ٣٩، ٤٠، والأعياد في مملكة غرناطة، ص١٤٠.
(٣) ديوان عبدالكريم القيس، ص١٨٢.

فهو يصف "الدّمنة الغرّاء" الواقعة بموطنه الأوّل بسطة، تلك الحديقة المليئة بالخيرات، وصفًا دقيقًا حتّى تكاد تتمثّل أمام أعين القرّاء، يتمتّعون بها، ويستنشقون عبير نسيمها، فيذكر أدواح العنب التي تخطف الأنظار بألوان عناقيدها، والتي اشتملت على شتّى فنون الحسن والجمال، إلى جانب روعة مذاقها الذي فاق مذاق الشّهد والعسل، وبتلك الدّمنة الغرّاء أدواح أخرى، مختلفة الألوان والثّمار، كالتّين الأيّوبي، الذي لا يساويه أيَّ تينٍ في مذاقه وسحره.

ثالثًا: وسائل التّسلية واللّهو:

تبنّى الأندلسيُّون طرقًا عديدة، ووسائل كثيرة للتّرويح عن أنفسهم، والتّغلّب على حالات السّأم والملل النّاتجين عن روتينيّة الأيّام، والتّخفيف من أعبائها التي تُثقل الرّوح، وتعكّر صفو الحياة، وزاد من اهتمامهم بذلك الأمر جماليّة بلادهم وسحر طبيعتها الفتّان، وما كانوا عليه من رفاهيّة العيش ورقي الحضارة، إضافةً إلى أنّ طباع سكّان بعض المناطق الأندلسيّة قد لوّنت حياتهم بأطياف البهجة، والبحث عن أسباب المرح والمتعة، ورد في النّفح عن أهل إشبيلية قول القائل: "وهذه المدينة من أحسن مدن الدّنيا، وبأهلها يُضرب المثل في الخلاعة، وانتهاز فرصة الزّمان السّاعة بعد السّاعة، ويعينهم على ذلك واديها الفرج، وناديها البهج"(١).

ولم يكن الأندلسيّون في شأنهم هذا بدعًا من الأمر، بل هو معتاد لدى أكثر الشّعوب العربيّة منذ القدم، وقد تنوّعت وسائل التّرفيه والتّسلية عندهم تبعًا لمكانة الفرد، وثقافته، ومستواه المعيشي، ومن أشهرها: رحلات الصّيد، وهي عادة قديمة "مارسها الإنسان منذ دهور سحيقة، باحثًا عن قوّته، أو مدافعًا عن نفسه، أو ناشدًا الرّياضة والمتعة"(٢)؛ لذا كان الخلفاء والأمراء يشغفون بها، حتّى ألزم بعضهم نفسه

(١) نفح الطّيب ١٥٩/١.
(٢) الصّيد والطّرد في الشّعر العربي حتّى نهاية القرن الثّاني الهجري، د/ عبّاس مصطفى الصّالحي، ط١، المؤسّسة الجامعية للدّراسات والنّشر، بيروت- لبنان، ١٤٠٢هـ= ١٩٨١م، ص١٤.

بالخروج إليها في جوّ الشّتاء، حيث البرد القاسي، والأرض مغطّاة بالجليد، يؤكد على ذلك قول العالم النّحوي، عبد الله بن الشّمر[١]: **(من الخفيف)**

لَيتَ شِعْرِي أمِن حَدِيدٍ خُلِقْنَا أمْ خُلِقْنَا مِنْ صَخْرَةٍ صَمَّاءِ

كُلَّ عَامٍ في الصَّيفِ نَحْنُ غُزَاةٌ وَالغَرَانِيقُ غَزْونَا في الشِّتَاءِ[٢]

إذْ تَرَى الأرْضَ وَالجَلِيدُ عَلَيهَا وَاقِعٌ مِثْلَ شُقَّةٍ بَيضَاءِ

وظلّت رحلات الصّيد تحتلّ الصّدارة بين وسائل التّسلية والتّرفيه عند الأندلسيين، على اختلاف أوضاعهم المادّية والاجتماعية، فإذا كان العامّة يطلبون الصّيد ابتغاءً للمعيشة، وطلبًا للرّزق، فإنّ الخاصّة منهم كانوا يخرجون إليه بقصد المتعة والتّسلية[٣]، يصوّر لنا ابن زمرك في طرديّاته شغف سلطانه الغني بالله بتلك الرّياضة، فيقول[٤]: **(من مخلّع البسيط)**

مَا لَذَّةُ الأمْلاكِ إلا القَنَصْ لأنَّهُ الفَألُ بِصَيدِ العِدَا

كَمْ شَارِدٍ جُرِّعَ فِيهِ الغُصَصْ وَأُوْرِدَ المَحْرُوبُ وِرْدَ الرَّدَى

وَكَمْ بدا الفَحْصُ لَنَا مِنْ حِصَصْ قَدْ جُمِّعَ البَأسُ بِهَا وَالنَّدَى

كما صوّر أيضًا بعض المشاهد الرّائعة من رحلة صيدٍ قام بها سلطانه، فظهرت فيها شجاعته، وتعدّدت فرائسه، وكثُرت منها عطاياه، فنال ومن شاركه في تلك الرّحلة المباركة أجر الجهاد، ونزهة الأبصار، وقد استعان في ذلك بطير العقاب، الذي كان

(١) هو عبد الله بن الشّمر بن نمير القرطبي، منجم سلطان الأندلس عبد الرّحمن بن الحكم ونديمه، كان لطيف المعاشرة، متفننا في العلوم، شاعرًا جيّدًا الشّعر، ت(بعد٢٣٥هـ)، المغرب في حلى المغرب ١٢٤/١.

(٢) الغرنيق: بضم الغين وفتح النّون طائر أبيض، وقيل هو طائر أسود من طير الماء، طويل العنق، لسان العرب، مادّة (غرنق)، ٣٢٤٩/٥.

(٣) يُنظر: التّصوير الفنّي للحياة الاجتماعية في الشّعر الأندلسي، ص٣٢٣: ٣٣٢، والشّعر الاجتماعي في الأندلس في عصر بني الأحمر، ص١٨٤: ١٩٤.

(٤) ديوان ابن زمرك، ص٥٥٦.

يطلقه إلى مسافات بعيدةٍ؛ ليصطاد ما تهيّأ له من وحوش وأطيار، حيث يقول[١]:

(من الكامل)

للهِ رِحْلَتُــــكَ التـــــي نِلْنَــــا بِهَـــا ... أجْـرَ الجِهَــادِ وَنُزْهَــةَ الأبْصَــارِ

أوْرَدْتَنَـــا فِيهَـــا لِجُـــودِكَ مَـــوْرِدًا ... مُسْـــتَعْذَبُ الإيـــرَادِ وَالإصْـــدَارِ

وَأفَضْـتَ فِينَـا مِـن نَـدَاكَ مَواهِبًـا ... حَسُـنَتْ مَوَاقِعُهَـا عَلَـى التَّكْـرَارِ

أضْـحَكْتَ ثَغْـرَ الثَّغْـرِ لمَّـا جِئْتَـهُ ... وَخَصَصْـتَهُ بِخَصَـائِصِ الإيثَـارِ

حَتَّـى الفَـلاةُ تُقِـيمُ يَـومَ وَرَدْتَهَـا ... سُـنَنَ القِـرَى بِتَلألُـؤِ الأنْـوَارِ

وَسَرَتْ عُقَابُ الجَوِّ تُهْدِيكَ الذي ... تَصْطَادُ مِنْ وَحْشٍ وَمِنْ أطْيَارِ

وكان السّلطان في رحلته هذه يمتطي جوادًا أصيلا، برع في فنون الحرب والصّيد على حدٍّ سواء، فأخذ يركض بسرعة فائقة، كنجوم السّماء المضيئة، تنقضّ بشهبها المحرقة على الشّياطين طردًا ورجمًا، وبذلك يتمكّن فارس هذا الجواد من اللّحاق بالثّور الذي فرّ أمامه هاربًا يبغي النّجاة، ولكن في غير حينه، فما لبث أن بلغه، فضربه برمحه ضربة قويّة أودت به، وتركه مخضّبًا بدمائه، ثمّ جاء رفاقه لينقضّون على ذلك الثّور برماحهم، التي بدت في استقامتها، وسرعة توجّهها نحو الهدف كأنّها طيور جارحة، أوت إلى أوكارها، ثمّ يشبّه الشّاعر تتابع الرّماح البيض بأسنّتها الحادّة مسرعةً خلف الفرائس بواحدة من المظاهر الكونيّة المتجدّدة، وهي مطاردة النّهار للّيل، فيمحي ظلامه البهيم بنور صبحه الوضّاح، ليختم بذلك التّشبيه لوحته القتالية البديعة، فيقول[٢]:

عَرَضَـتْ بِهَـا المُسْـتَنْفَرَاتُ كَأنَّهَـا ... خَيـلٌ عِرَابٌ جُلْـنَ فـي مِضْـمَارِ

أتْبَعْتَهَـــا غُـــرَرَ الجِيَـــادِ كُوَاكِبًـــا ... تَنْقَضُّ رَجْمًا في سَمَاءِ غُبَارِ

(١) ديوان ابن زمرك، ص٤١٥.
(٢) ديوان ابن زمرك، ص٤١٥، ٤١٦.

وَالهَادِيَـاتُ يَؤُمُهَـا عَبْـلُ الشَّـوَى مُتَـــدَفِّقٌ كَتَـــدَفُّقِ التَّيَّـــارِ
أَثْبَـتْ فِيـهِ الـرُّمْحَ ثُـمَّ تَرَكْتَـهُ خَضِبَ الجَوَانِحِ بِالـدَّمِ المَـوَّارِ
حَامَـت عَلَيـهِ الـذَّابِلاتُ كَأَنَّهَـا طَيْـرٌ أَوَتْ مِنْـهُ إِلـى أَوْكَـارِ
طَفِقَـتْ أَرَانِبُـهُ غُـدَاةَ أَثَرْتَهَـا تَبْغِـي الفِـرَارَ وَلاتَ حِـينَ فِـرَارِ
هَلْ يَنْفَعُ البَاعُ الطَّوِيلُ وَقَدْ غَدَتْ يَـوْمَ الطِّـرَادِ قَصِـيْرَةَ الأَعْمَـارِ
مِـنْ كُـلِّ مُنْحَفِـزٍ بِلَمْحَـةِ بَـارِقٍ فَاتَـتْ خُطَـاهُ مَـدَارِكَ الأَبْصَـارِ
وَجَـوارِحٍ سَـبَقَتْ إِلَيـهِ طِلابِهَـا فَكَأَنَّمَـا طَالَبْنَـهُ بِالثَّـارِ
سُـودٌ وَبِـيضٌ فِـي الطِّـرَادِ تَتَابَعَـتْ كَاللَّيـلِ طَـارَدَهُ بَيَـاضُ نَهَـارِ

ومن أبرز الوسائل التّرفيهيّة التي لجأ إليها الأندلسيون؛ للتّرويح عن أنفسهم، وشغل أوقات فراغهم، الفروسيّة وسباق الخيل، وقد وصف ابن الخطيب اهتمامهم الكبير بالفروسيّة، وبراعتهم فيها بأنّهم "أحذق النّاس بالفروسية، وأبصرهم بالطّعن والضّرب"(١)، وكان الحكّام والأمراء يقفون في طليعة أبناء الأندلس؛ للتّدريب على ركوب الخيل وطرائق امتطائها، كما كانت السّبيكة أو مدرج السّبيكة بغرناطة ملعبًا كبيرًا للخيل، وميدانًا للفروسية في الأعياد والمناسبات، يدلّ على ذلك قول ابن فركون(٢): **(من الطويل)**

وَللهِ مِـــن أُفُـــقِ السَّـــبِيكَةِ مَلْعَـــبٌ تُجَـارِي لَدَيـهِ مُرْسَـلَ الـرِّيحِ جُـرْدُهُ
تَرُوْقُ جِيَادُ النَّصْرِ فِيهِ مَتَى ارْتَمَتْ إِلـى لَعِـبٍ فِيـهِ المَسِـيرَ تُجِـدُّهُ
تَجُـولُ كَمَـا شَـاءَ الكَمِـيُّ فَيُجْتَلَـى بِإِقْبَالِهَـا عَكْـسُ الغَـوِيِّ وَطَـرْدُهُ

(١) نفح الطّيب ١٥١/٣.
(٢) ديوان ابن فركون، ص١٣٦.

وَتُصْـمِتُ عُجْبًـا كُـلَّ ذِي لَجَـبٍ إِذَا أَغَـارَتْ وَغَـابُ الحَـرْبِ تَـزْأَرُ أُسْـدُهُ[١]

تَـرَى الصُّبْحَ يَتْلُـو حُمْـرَةَ الفَجْـرِ كُلَّمَـا يُلاعِـبُ مِنْهَـا الأَشْـهَبَ اللّـونِ وَرْدُهُ

فَهُنِّئْتَـــهُ صُـــنْعًا جَمِـــيلا تَشَـــوَّفَتْ لَـــهُ صِـــينُ مَعْمُـــورِ الـــبِلادِ وَهِنْـــدُهُ

يصف الشّاعر مدى اتّساع مدرج السّبيكة، الأمر الذي أهّله ليكون ملعبًا للخيول، تتبارى بأرضها في سرعةٍ بالغةٍ كأنّها الرّيح المرسلة، موضّحًا أنّ هذه الخيول التي تُتّخذ حالات السّلم للتّرفيه وإشاعة البهجة، هي ذاتها الخيول التي تخوض غمار الحروب، وتحرز النّصر الشّريف لأصحابها، فهي خيول قويّة، مدرّبة، تجيد الحركات القتالية، وتتغاير ألوانها ما بين الأسود والأشهب، كما الفجر يبدّده الصّباح في لونٍ ورديٍ أو برتقاليٍّ جميل، وأنّ هذه السّبيكة نادرة الوجود، فلا مثيل لها؛ لذا فإنّ البلاد قديمة الحضارات كالهند والصّين تتطلّع دائمًا لمثلها.

ولا يخفى ما في وصف الشّاعر لهذا النّوع من الرّياضات من تصور اجتماعي دقيق، يؤكد لنا مدى اهتمام الدّولة الإسلامية في الأندلس بإقامة العديد من الملاعب، وأماكن التّدريب والتّرفيه، كما يصوّر الوضع الحربي، وحالة الاستعداد الدّائم في تلك الفترة[٢].

ومن ألعاب الفروسيّة التي عرفها الأندلسيّون، وبخاصّة في عصر بني الأحمر، مصارعة الثّيران، وهي رياضة بدنيّة كادت أن تغفل عنها المصادر الأدبيّة لولا بعض القصائد التي نظمها شعراء المغرب والأندلس في وصف احتفالات البلدين بالمناسبات المختلفة[٣]، ومن بينها قول ابن الخطيب، يصف جانبًا من مصارعة شاهدها بنفسه، مخاطبًا سلطانه قائلا[٤]: **(من الوافر)**

وَطَـارَدْتَ الصّـوَارَ بِكُـلِّ ضَـارٍ كَمَـا أَتْبَعْـتَ عِفْرِيتًـا شِـهَابًا

(١) اللجب: ارتفاع الأصوات، مع غلبتها واختلاطها، لسان العرب، مادّة (لجب)، ٣٩٩٨/٥.
(٢) يُنظر: المكان في شعر مملكة غرناطة، د/ إيمان الجمل، حوليّة كلية الدّراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، المجلد "٦"، العدد "٣٢"، ص٣٩١.
(٣) يُنظر: مشاهدات لسان الدّين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، د. أحمد مختار العبادي، ط١، مؤسّسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص٦، هامش الكتاب، والأعياد في مملكة غرناطة، ص١٤١: ١٤٣.
(٤) نفح الطّيب ٢٩٧/٧.

ضَــرَبْتَ عَلَــى الآذَانِ مِنْهَــا فَلَـمْ تَسْـطِعْ حِرَاكًـا وَاضْـطِرَابَا
وَمَعْصُـوبِ الجَبِـينِ بِتَـاجِ رَوقٍ يَـرُوعُ خُـوَارُهُ الأُسْـدَ الغِضَـابَا[1]
تَعَـرَّفَ أَنَّ تَحْـتَ الأَرْضِ ثَـوْرًا فَـرَامَ بِـأَنْ يَشُــقَّ لَــهُ التُّرَابَــا
وَكَلْتَ بِـهِ هَضِـيمَ الكَشْحِ أَجْنَى حَدِيـدَ النَّـابِ تَحْسَبُهَـا حِرَابَــا
تَبَاعَـدَ مَجْمَـعَ الشِّـدْقَينِ مِنــهُ وَسَــالَ المــوَتُ بَينَهُمَـا لُعَابَــا
فَأَثبتــهُ كَـوَحْيِ الطَّـرْفِ حَتَّــى تَـوَثَّــقَ مِنــهُ جَـازِرُهُ غِلابَــا

وينتقل البحث من ألعاب الفروسيّة والقتال، إلى ما يرتبط منها بالرُّقيّ الاجتماعي، والتّقدّم الحضاري الذي شهدته الأندلس، ومن بينها: رياضة السّباحة، التي أدّت إلى ظهورها طبيعة الأرض الزّراعيّة، حيث كثرة البحار والأنهار، بيد أنّ الأشعار التي تصوّرها قليلة[2]، منها مقطوعة ابن خاتمة الأنصاري التي أنشدها في غلام حسن الهيئة، بارع في السّباحة، يقول[3]: **(من المتقارب)**

وَظَبْـيٍ تَجَـرَّدَ عَـنْ قُمْصِـهِ وَقَدْ زَرَّ للحُسْنِ أَضْفَى قَمِيصْ
وَأَقْبَلَ يَسْبَحُ فِي المَاءِ تِيْهًا فَيَبْـدُو وَيَخْفَـى كَمَعْنًـى عَـوِيصْ
كَـأَنَّ مُحَيَّـاهُ بَـدْرُ سَـحَابٍ فَطَـوْرًا يَلُـوحُ وَطَـوْرًا يَغُـوصْ

ومنها أيضًا: لعبة الشّطرنج، التي ترجع في أصل نشأتها إلى الهند، وقد نقلها الفرس إلى العرب المسلمين، ثمّ دخلت الأندلس ابتداءً من القرن الرّابع الهجري، عن طريق بعض المغنّين والوافدين العراقيين، ثمّ أخذت مكانها بالتّدريج في أوساط المجتمع الأندلسي، ولا سيّما الغرناطي منه كوسيلة من وسائل التّرفيه والتّسلية، إلا أنّها قد عُدّت من الألعاب المحرّمة، التي نادى الفقهاء بالكفّ عن مزاولتها، ممّا جعل

(١) الخوار: صوت الثّور وما اشتدّ من صوت البقرة والعجل، لسان العرب، مادّة (خور)، ١٢٨٥/٢.
(٢) يُنظر: التصوير الفنّي للحياة الاجتماعية في الشّعر الأندلسي، ص٣٢٢.
(٣) ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ص١٣٦.

العالم الورع، محمّد بن الفخّار الجذامي يؤلّف كتابًا في تحريمها، أسماه: "استواء النّهج في تحريم اللّعب بالشّطرنج"(١).

وعلى المستوى الفنّي كثيرًا ما كان الشّعراء يستحضرون قواعد لعبة الشّطرنج، وأدواتها في تصوير ما يقع في حياتهم(٢)، فهذا لسان الدّين بن الخطيب يصوّر تحرّكات أحد سلاطين بني الأحمر العسكرية من فاس البيضاء بالمغرب، إلى غرناطة الحمراء بالأندلس لأجل توطيد الملك، ومحاربة الأعداء وكأنّها قطع الشّطرنج، وقد خصّ الشّاعر "الفرس"؛ لأنّه القطعة الوحيدة التي يمكنها القفز فوق القطع الأخرى، تأكيدًا على قوّة الممدوح وشجاعته، حيث يقول(٣): **(من الطويل)**

وَلمَّـا حَثَثْـتَ السَّـيْرَ وَاللهُ حَـاكمٌ لِمُلْكِكَ فـي الدُّنيَا بِعِزٍّ وَفـي الأُخْرَى

حَكَى فَرَسَ الشَّطرَنْجِ طِرْفُكَ لا يُرَى يُنَقَّـلُ مِـنْ بِيضَـاءَ إلا إلـى حَمْـرَا

كما استلهمها بقصيدة أخرى في وصف السّماء، في ليلةٍ اكتمل فيها القمر بدرًا منيرًا، وأحاطت به الكواكب، أمثال كوكب الزّهرة، والنّجوم المتلألئة، مشبّهًا ذلك المشهد الطّبيعي الخلاب ببعض أدوات لعبة الشّطرنج، وهي الفرزان، والشّاه، والبياذق، يقول(٤): **(من الكامل)**

تَتَعَاوَرُ القُطْبَانِ مِنْهَا رُقْعَةً وَكِلاهُمَا فِيهَا لَعُوبٌ حَاذِقُ

الزُّهْـرَةُ الزَّهْـرَاءُ فَـرْزَانٌ بِهَـا وَالبَدْرُ شَاهٌ وَالنُّجُومُ بَيَاذِقُ

ويظهر ممّا سجّلته بعض المصنّفات العربية القديمة في الأدب والتّاريخ والتّرجمة، أنّ لعبة الشّطرنج كانت أثيرة لدى نخبة من عناصر المجتمع العربي والإسلامي في مختلف عصوره السّابقة، حيث لعبها إلى جانب الخلفاء والأمراء جمعٌ

(١) هو أبو بكر، محمّد بن عبد الرّحمن بن محمّد بن علي بن محمّد ابن أحمد بن الفخار الجذامي، أركشي المولد المنشأ، مالقي الاستيطان، شريشي التّدرّب والقراءة، كان خيّرًا صالحًا، شديد الانقباض، مغرقًا في باب الورع، سليم الباطن، كثير العكوف على العلم والملازمة، قليل الرّياء والتّصنع، ت(٧٢٣هـ)، يُنظر ترجمته ومؤلّفاته في: الإحاطة ٦٤/٣: ٦٦، ويُنظر الحديث عن تلك اللّعبة بشيءٍ من التّفصيل في: التّصوير الفنّي للحياة الاجتماعية في الشّعر الأندلسي، ص٣١٩.

(٢) يُنظر: التّصوير الفنّي للحياة الاجتماعية في الشّعر الأندلسي، ص٣١٦: ٣١٩.

(٣) ديوان لسان الدّين بن الخطيب ٤٠٨/١.

(٤) ديوان لسان الدّين بن الخطيب ٧١٣/٢.

من العلماء، والقادة، والفلاسفة، والشّعراء، وأصبحت من الألقاب التي يحملها البعض؛ لتصبح جزءًا من اسمه(١).

رابعًا: الآفات الاجتماعيّة:

ابتُلي المجتمع الأندلسي ببعض العادات السّيئة، التي ظهرت كنتيجة طبيعيّة لسوء استخدام مبادىء الحضارة والتّقدّم، والانغماس التّام في حياة التّرف واللّهو، وأولى هذه العادات: معاقرة الخمور، إذ لا يخفى على متصفّحٍ لتاريخ المجتمع الأندلسي في مراحله المختلفة مدى انتشار ظاهرة شرب الخمر، على الرّغم من وجودها على رأس قائمة المحرّمات في الذّهنيّة الفقهية لديهم.

ولم يقتصر شرب الخمر على طبقة الخاصّة، التي كانت ترى فيه دليلا رمزيًّا على السّلطة والبذخ، وحياة المتعة والتّرف، وإنّما تعدّتها أيضًا لتشمل الرّعية، الذين كان إقبالهم عليها في أغلب الأحيان كنتاجٍ سلبيٍّ لبنية نفسيّة محطّمة من قبيل التّشرّد والمعاناة، أو الحروب والغربة، وتبدّل الأحوال من نعيمها إلى بؤسها، والأدهى من ذلك أنّ صناعة الخمور في الأندلس لم يقتصر على الاستعمال الشّخصي فقط، بل وجّهت للبيع في الأسواق(٢).

من هنا فقد أكثر شعراء الأندلس القول في وصف مجالس الخمر، وأبدعوا في تصوير كلّ ما يدعي إليها، أو يتعلّق بها، فوصفوا السّقاة، والنّدامى، والكؤوس المدارة

(١) يُنظر تفاصيل ذلك في: معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدّين الحموي، ت(٦٢٦هـ)، تحقيق/ د. إحسان عبّاس، ط١، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م، ٥٧٧/٢، ١٤٩٥/٤، ٢٥٥١/٦، ٢٦٧٧/٦.

(٢) يُنظر في شيوع العديد من الآفات الاجتماعية ببلاد المغرب والأندلس: المغرب في حلى المغرب ٤٢٤/١، ١٥٤/٢، ويُنظر أيضًا: ثلاث رسائل أندلسيّة في آداب الحسبة والمحتسب، محمّد بن عبدون التّجيبي، وأحمد بن عبدالله بن عبدالرؤوف، وعمر بن عثمان بن العبّاس الجرسيفي، تحقيق أ. ليفي بروفنسال، ط١، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشّرقية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص٤٣: ٤٥، والتّصوير الفنّي للحياة الاجتماعية في الشّعر الأندلسي، ص٢٨١: ٣١٥، وحياة الشّعر في نهاية الأندلس، ص٥٠٢: ٥١٨، والآفات الاجتماعية في الأندلس ما بين القرنين الخامس والسّادس الهجريين، دراسة في ظاهرة الانحراف، أطروحة مقدّمة من الباحثة/ رقيّة بن خيرة؛ لنيل درجة الدّكتوراه في التّاريخ والحضارة، من جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، الجزائر، ١٤٣٨هـ= ٢٠١٧م، ١٣٩: ١٤٣.

بينهم، ووصفوا ما انعقد من مجالسها في أحضان الطّبيعة الغنّاء، وسط الرّياض الجميلة بأشجارها، وأنهارها، وطيورها، وطيب هوائها، وما كان يصاحب تلك المجالس من روائع الطّرب والغناء، فهذا ابن سهل الأندلسي[١] يبدع في وصف كؤوس الخمر، ويُعرب عن شدّة كلفه بها، فينشد قائلا[٢]: **(من الطويل)**

سَل الكأسَ تَزهُو بَينَ صبغٍ وإشرَاقِ أذُوّبَ فِيهَا الوَرْدُ أمْ وَجْنَةُ السَّاقِي

كُؤوسٌ تُحَيّيهَا النُّفُوسُ كَأنَّهَا حَدِيْثُ تَلَاقٍ في مَسَامِعِ عُشَّاقِ

إذَا قَتَلُوهَا بالمزَاجِ لِيَشْرَبُوا أعَاشُوا مُنَاهُمْ بَينَ مَوتٍ وَإخْلاقِ

وهذا لسان الدّين بن الخطيب يدعو إلى احتساء الخمر بين أنغام الآلات الموسيقية الرّنانة كالعود والمزمار، في حديقة واسعة اكتست ثوبها الأخضر المزركش، وقد انكشف ظلام اللّيل وأشرق فجر يومٍ جديد، كدليلٍ على مواصلتهم اللّيل بالنّهار، في جوٍّ من اللّذّة والمتعة، إذا يقول[٣]: **(من الوافر)**

أدِرْهَا بَيْنَ مُزْمَارٍ وَعُودِ وَدُونِكَ فَاغْتَنِمْ زَمَنَ السّعُودِ

فَبُرْدُ الرَّوضِ مَرْقُومُ الحَوَاشِي وَدُرُّ الطَّلِّ مَنْظُومُ العُقُودِ

وَجُنْحُ اللّيلِ مَطْوِيُّ النَّوَاحِي وَضُوءُ الفَجْرِ مَنْشُورُ البُنُودِ

وَخُذْهَا وَالبَلابِلُ في خِصَامٍ وَنَجْمُ الصُّبْحِ مُلْتَهِبُ الوَقُودِ

عَرَائِسُ في حُلَى الكَاسَاتِ تُجْلَى مُوَرَّدَةَ التَّرَائِبِ وَالخُدُودِ

خَطَبْنَاهَا وَكَانَ الأُنْسُ مَهْرًا وَألحَانُ القِيَانِ مِن الشُّهُودِ

(١) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن سهل، الإشبيلي، الإسرائيلي، كان من الأدباء الأذكياء، وكان يهوديًّا فأسلم، ت(٦٤٩هـ)، يُنظر ترجمته في: المغرب في حلى المغرب ٢٦٩/١، والأعلام للزّركلي ٤٢/١.

(٢) ديوان ابن سهل الأندلسي، تحقيق/ د. إحسان عبّاس، ط، دار صادر بيروت، بيروت، ١٤٠٠هـ= ١٩٨٠م، ص٢٥٩.

(٣) ديوان لسان الدّين بن الخطيب ٢٨٢/١.

فالشّاعر في هذه الأبيات يصوّر كاسات الخمر، وينقلها لنا في أجمل منظرٍ، وأبهى صورة، حيث بدت أمام عينيه وكأنّها عرائس فاتنات الجمال، مُورّدة التّرائب والخدود، تُجلى للنّدامى في كاسات برّاقة، فيُفتتون بها، ويودّ كلّ منهم لو يسعده الزّمان، فيحظى بخطبتها، مقدّمًا لها الأنس مهرًا، وألحان القيان شهودًا.

وهذا ابن الجيّاب الغرناطي يصف لنا أثرها في نفس شاربها، وما يعتريه من لذّةٍ ونشوة، في قصيدة يردّ بها على بعض أصحابه، قائلا[1]: **(من الطويل)**

سَقَتْنِي بِكَأسٍ ظَلْتُ مِنْهَا بِنَشْوَةٍ … فَيَا حَبَّذَا سُكْرِي بِصَهْبَائِهَا الخلِّ

عَقِيلةُ مِن حُلْيٍ ووشْيٍ زَمَانِهِ … فَلَيْسَ بِعُطْلٍ مِن حُلاهُ وَلا غُفْلِ

وَمَنْ مِثْلُ مُهْدِيهَا أبي القَاسِم الرّضَا … مَحلُّ الأخِ المَحْضُ الصَّفَاءِ أوْ النَّجْلِ

وقد بالغ الأندلسيّون كثيرًا في وسائل التّمتّع بمجالسهم الخمرية، حتّى اتّصفت بالتّهتّك الصّريح والاستهتار، وما يترتّب عليهما من ألوان الفسق والفجور، إذ كانوا يتّخذون سُقاة من الجواري الفاتنات، يعملن بتلك الحانات، فتُحدثن مع النّدامى مجاذبات وعلاقات يحرّمها الشّرع، وتُنبذها المجتمعات القويمة؛ إرضاءً لراغباتهم الدّنيوية، يصوّر ابن الخطيب ذلك من خلال دعوته إلى احتساء الخمر من كفّ جارية ساحرة، تختال بحسنها، وجمال عيونها، فيقول[2]: **(من الكامل)**

لا تُوقِدِ المِصْبَاحَ وَاعْلَمْ أنَّ لي … مِن وَجْهِ مَن أحْبَبْتُهُ مِصْبَاحَا

حُثَّ الكُؤوسَ وَهَاتِنِيهَا قَهْوَةً … تَنْفِي الهُمُومَ وَتُجْلِبُ الأفْرَاحَا

مِن كَفِّ فَاتِنَةِ اللِّحَاظِ غَرِيرَةٍ … سَكْرَى الجُفُونِ وَمَا سُقِينَ الرَّاحَا

(١) ديوان ابن الجياب الغرناطي، ص٣٢٩.
(٢) ديوان لسان الدّين بن الخطيب ٢٢٢/١.

هِـي رَوضَـةٌ تَجْنِيكَ بَـينَ لِثَاتِهَـا خَمْــرًا وَمِــن وَجَنَاتِهَــا تُفَّاحَــا

فَـإِذَا اعْتَنَقْـتَ أَوْ ارْتَشَـفْتَ فَإِنَّمَـا عَانَقْـتَ غُصْـنًا وَارْتَشَـفْتَ أَقَاحَـا

وبينما الشّعراء هائمون في لذّاتهم، ظهر تيّار معادٍ لما كانوا عليه من السّفور ومجاهرة المعاصي، يتّسم شعره بطابع الحكمة، ويقترب في معانيه إلى الزّهد والتّصوّف، ومن نماذجه قول محمّد بن سعد الخير بن عيّاش في ذمّ الخمر من جهة الدّنيا لا من جهة الدّين فقط[1]: **(من الطويل)**

لَقَدْ ذَمَّ بَعضَ الخَمْرِ قَومٌ لأَنَّهَـا تُكِـرُّ عَلَـى دِيـنِ الفَتَـى بِفَسَـادِ

وَقَدْ سَلَّمُوا قَولَ الذي قَال إِنَّهَـا تَحِـلُّ مِـن الـدُّنيَا بِـأَعْظَمِ نَـادِ

وَتُـذْهِبُ بِالمَـالِ العَظِيمِ فَلَنْ تَرَى لِمُـدْمِنِهَا مِــن طَــارِفٍ وَتَــلادِ

فَيُمْسِـي كَرِيمًـا سَـيِّدًا ثُـمَّ يَغْتَـدِي سَفِيهًا حَلِيفَ الغَيِّ بَعَدَ رَشَادِ

فهو لا ينظر إلى حرمة الخمر من الوجهة الدّينية؛ لأنه أمرٌ معلومٌ بالضّرورة، وإنّما يركّز على ما تجلبه الخمر من أضرارٍ دنيويّة كإهدارٍ للمال، وفساد في العقل والأخلاق، علاوةً على ذلك فإنّها تحطّ من المكانة الاجتماعية لشاربها، فتحوّله من سيّد كريم، وصاحب فكرٍ رشيدٍ، إلى عبدٍ ذليلٍ، وحليف غيٍّ سفيه.

وآفة أخرى انتشرت ببعض المدن الأندلسية في العصور الأخيرة، ولاسيّما مدينة غرناطة، هي تناول مادّة المخدّرات أوالحشيش، الذي انتشر في بلاد المشرق أوّلا، ثمّ انتقل إثر ذلك إلى بلاد المغرب والأندلس، حيث كانا في مأمنٍ من هذه الآفة حتّى القرن السّابع الهجري، فالنّصوص الأدبية التي تحدّثت عن انتشار تلك المادّة في غرناطة تعود كلّها إلى القرن الثّامن الهجري، ممّا يدلّ على أنّ ظهوره في الأندلس كان منذ ذلك الحين.

(١) هو محمّد بن محمّد بن إبراهيم بن محمّد بن إبراهيم بن محمّد بن خلف بن محمّد بن سليمان بن سعد الخير بن عياش، المكنى بأبي عيشون بن حمود، نشأة ببلده ألمرية عمود العفة، فضفاض جلباب الصّيانة، غضيض طرف الحياء، ثم صرف عنانه إلى الأندلس، فتصرّف في الإقراء، والقضاء، والخطابة، لم تحدّد المصادر تاريخ وفاته، ينظر ترجمته ونصّه في: الإحاطة ٨٣/٢، ٩٧.

ولعلّ انتشار مثل هذه الآفات راجع إلى ما كان يعانيه سكّان غرناطة من اضطرابات سياسية وخمول، والدّليل على ذلك ما يقصّه ابن الخطيب في كتابه نفاضة الجراب، قائلا: وبلغت الأندلس لهذا العهد- أي عهد السّلطان أبي سعيد البرميخو- من خمول الأمر، واحتمال السّيرة ما لا فوقه، حدّثني صاحب شرطته، وهو لا بأس به، قال أطريته باجتناب النّاس الخمر في أيّامه، وطهارة بلده من قاذوراتها، فقال لي في الملأ المشهود، والحشيش كيف حالها؟ قلت ما عثرت على شيء منه، فقال هيهات، انزل على بيت فلان وفلان وفلان، وعدّد كثيرًا من السّاسة والأوغاد والصّفّاعين، ورسم مكانهم، قال صاحب الشّرطة: فانصرفت إلى ما ذكر فوالله ما أخطأت شيئًا عمّا رسمه، ولا فقدت شيئًا ممّا ذكره(١).

فقد ساعد على الكلف بشرب الخمر واللّجوء إلى تعاطي المخدّرات والحشيش عامل نفسيّ لأُناسٍ يعيشون على حافّة الخطر- بعيدين عن مركز الإسلام، يجاورهم أعداء متربّصون في الخارج، ويحيط بهم صراع دموي من أجل السّلطة والجاه في الدّاخل، وهم مع ذلك يعيشون في رخاء اقتصادي كبير، يغوي بالمتع والرّفاهية.

كما كان لانتشار الأمراض في الآونة الأخيرة من حكم غرناطة الإسلامية، كمرض الطّاعون الذي راح ضحيّته أعداد كبيرة من السّكّان، أثرٌ واضحٌ في أن يسكن الرّعب قلوب الأحياء، فأخذوا يدعون أنفسهم إلى اغتنام الفرص التي تلوح إليهم لقضاء أغلب أوقاتهم في المتعة واللّهو، محاولين النّسيان بتغييب عقولهم عن الواقع، وكأنّهم يستشعرون النّهاية المأساوية التي تنتظر مملكتهم(٢).

ومن أبرز النّصوص الشّعرية التي نُظمت في مادّة الحشيش المخدّرة، قول محمّد الحجري الرّعيني، المعروف بابن خميس(٣): **(من الطويل)**

(١) نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق/ د. أحمد مختار العبادي، ط١، مجموعة تراثنا، مصر، ١٩٦٨م، ص١٨٣، ويُنظر: الأعياد في مملكة غرناطة، ص١٤٦.
(٢) التّصوير الفنّي للحياة الاجتماعية في الشّعر الأندلسي، ص٢٨١، بتصرّف.
(٣) هو أبو عبدالله محمّد بن عمر بن محمّد بن عمر بن محمّد الجميري الحجري، يُعرف بابن خميس التّلمساني، قال فيه ابن الخطيب: كان نسيج وحده زهدا، وهمة مع سلامة الصّدر، وحسن الهيئة، وقلة التّصنع، قائمًا على صناعة العربية، كتب بتلمسان عن ملوكها، ثمّ فرّ منهم وقدم غرناطة، له قصائد كثيرة تعانى فيها

دَعِ الخَمْرَ وَاشْرَبْ مِن مُدَامَةِ حَيْدَرِ مُعَتَّقَـــةٍ خَضْـــرَاء لَـــونَ الزَّبَرْجَـــدِ
هِـيَ البِكْـرُ لَـمْ تُـنْكَحْ بِمَـاءِ سَـحَابَةٍ وَلا عُصِـرَتْ بِالرِّجْـلِ يَومًـا وَلا اليَـدِ
وَلا عَبَـثَ القَسِّـيسُ يَومًـا بِـدَنِّهَا وَلا قَرَّبُـوا مِـن دَنِّهَـا نَفَـسَ مُلْحِـدِ
وَلا نَـصَّ فـي تَحْرِيمِهَـا عِنـدَ مَالِـكٍ وَلا حَـــدَّ عِنـــدَ الشَّـــافِعِيِّ وَأَحْمَـــدِ
وَفِيهَـا مَعَـانٍ لَـيسَ للخَمْـرِ مِثْلِهَـا فَـــلا تَسْـــتَمِعْ فِيهَـــا كَـــلامَ المُفَنِّـــدِ
فَكُـفَّ أَكُـفَّ الهـمِّ بِـالكَفِّ وَاسْـتَرِحْ وَلا تَطَّـرِحْ يَـومَ السُّـرُورِ إِلـى الغَـدِ

فالشّاعر في هذه الأبيات يفضّل الحشيش على الخمر، معبّرًا عنه بقوله: "واشرب من مدامة حيدر"، وهو الشّيخ حيدرا بن يحيى، ت(٦١٨هـ)، من علماء بغداد، قيل إنّه كان يُبيح مادّة الحشيش المخدّرة قولا وفعلا، وقد نسبه ابن خميس إليه؛ لما أُشيع من أنّه مكتشفها، وأنّها كانت وقفًا على رفاقه المتصوّفين؛ ولذلك سُمّيت لمدّة من الزّمان بـ "حشيشة الفقراء"، ولم يُرد الشّيخ أن يُذع سرّها في حياته، وأوصى أن تُزرع على قبره بعد وفاته، وقيل أيضًا إنّ الشيخ حيدرا لم يأكل الحشيشة في عمره البتة، وإنّما عامّة أهل خراسان نسبوها إليه لاشتهار أصحابه بها، وأن إظهارها كان قبل وجوده بزمان طويل(١).

ثمّ يأخذ في تعداد ما يميّزها عن الخمر، ويفضّلها عليها، فالحشيشة لم تخلط بالماء كما تخلط الخمر، ولم تعصر بالرجل أو اليد مثلها، ولم يتّخذ القسّيس منها مادّة لعبثه، ولم يقرب من دنّها كلّ ملحدٍ كما هو حالهم مع الخمر، وأيضًا لم تنصّ المذاهب الفقهيّة المعروفة على تحريمها كما نصّت على تحريم الخمر، وأنّ حدّها ليس كحدّ الخمر.

حواشي الكلام فأجاد، وقصائد يجتنب ذلك فيها فأحسن، ت(٧٠٨هـ)، ينظر ترجمته ونصّه في: الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة، أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني ت(٨٥٢هـ)، تحقيق/ محمّد عبد المعيد ضان، ط٢، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٢هـ= ١٩٧٢م ، ٥/ ٣٧١، ودرّة الحجال في أسماء الرّجال، لأبي العبّاس أحمد بم محمّد المكناسي، ت(٩٦٠هـ)، تحقيق/ د. محمّد الأحمدي أبو النّور، ط١، مطبعة السّنّة المحمّدية، ١٣٩١هـ= ١٩٧١م، ٢/ ٢٧: ٢٩.

(١) يُنظر تفاصيل ذلك في: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تقي الدّين المقريزي، ت(٨٤٥هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ، ٣/ ٢٢٦: ٢٣١.

ثمّ يختم مقطوعته الشّعرية بدعوةٍ صريحةٍ إلى الاقبال على تناول مادّة الحشيشة؛ لأنّها تساعد على طرح الهموم، وجلب السّرور، ونراه في البيت الأخير ينصّ على شيءٍ آخر يفرّقها عن الخمر، وهو كيفيّة التّناول، فهي تُتناول بالكفِّ، بينما قرينتها بالكأس.

ومن واقع تأثير مادّة الحشيش على صاحبها، وتفوّقها في ذلك الأمر على كأس الخمر، يفضّلها الشّاعر المعروف بابن الوحيد، فيصفها بأنّها خضراء اللّون، وأنّها تفعل في الألباب ما لا تفعله الخمر المعتّقة، وأنّ رائحتها قويّة، تؤجّج في القلب نيران المتعة واللّذّة، يقول[1]: **(من الطويل)**

وَخَضْـرَاءَ لا تَفْعَلُ الخَمْـرُ فِعْلَهَـا لَهَـا وَثَبَـاتٌ فـي الحَشَـا وَثَبـاتُ

تُؤَجِّجُ نَـارًا فـي الحَشَا وَهْيَ جَنَّـةٌ وَتُبْدِي لَذِيذَ العَيْشِ وَهْيَ نَبَاتُ

كذلك ورد في ديوان ابن الخطيب إشارة إلى تناول بعض السّكان الأندلسيين في عصره لمادة الحشيش المخدّرة، مصدّرًا حديثه الشّعريّ بعبارته: "وقلت أيضًا أُعَرِّضُ بِمن تَناول نَبات القُنب[2]، وكنّيتُ عنه بالرّبيع موافقةً لكُنية أبي المخاطب"، فيقول[3]: **(من الطويل)**

أتَـى ابـنُ سُـلَيمَانٍ وَفـي الفِكْـرِ فَتْـرَةٌ يُخَبِّـرُ أنَّ العَقْـلَ جِـدُّ مُغَيَّـبِ

فَقُلْـتُ أظُـنُّ السَّـيد اعْـتَمّ عِمّـةً وَلَكِنَّهـا فـي الأصْلِ مِن كُنيَـةِ الأبِ

يتبيّن ممّا سبق أنّ ظاهرتي شرب الخمر، وتناول الموادّ المخدّرة كالحشيش ونحوها ممّا يغيّب العقل، ويُهدر الصّحة والمال، قد عرفت تفشّيًا ملحوظًا في المجتمع

(١) ابن الوحيد: هو محمّد بن شريف بن يوسف الزّرعي ثم المصري شرف الدّين ابن الوحيد، كاتب الشّريعة الشّريفة بجامع الحاكم، صاحب الخطّ الفائق والنّظم والنّثر؛ كان تام الشّكل حسن البزة، موصوفًا بالشّجاعة، متكلمًا بعدة ألسن، يضرب المثل بحسن كتابته، ت(٧١١هـ)، يُنظر التّرجمة والنّصّ في: الدّرر الكامنة ٥/ ١٩٦، ودرّة الحجال ٢/ ٣٠٩، ٣١٠.

(٢) القنب: هو نبات القنب الهندي، يُستخرج منه المخدّر الضّار المعروف بالحشيش والحشيشة، المعجم الوسيط، مجمع اللّغة العربية، ط٤، مكتبة الشّروق الدّولية، ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م، مادّة (قنب)، ص٧٦١.

(٣) ديوان لسان الدّين بن الخطيب ١/ ١٥٣.

الأندلسي، وهو ما تبرزه بشكلٍ جليٍّ مختلف المتون المصدريّة التي أرّخت لها، على أنّ ما أحاط بها من ظروف سياسية، واقتصادية، وأحوالٍ نفسية، جعلت كافّة الإجراءات المتّخذة من السّلطة ورجال الدّين بالدّولة عاجزة عن معالجتها إلا في حدود النّهي عنها، وبدون أن يُسهب البحث في ذلك الموضوع، لا مراء من القول أنّ هذه الظّاهرة دلّت على وجود خللٍ ما في المنظومة الأخلاقية لهذا المجتمع، متجاوزة بذلك سلطة المقدّس، والتّحريم المرتبط بها(١).

ومن أبرز آفات المجتمع الأندلسي التي صاحبت الوجود العربي بأرضه منذ البداية وحتّى السّقوط، ولكن بنسبٍ متفاوتة بين العصور هوى الغلمان والتّغزّل بهم، "وانتشار تلك الآفة في مجتمعٍ لا يعاني من الكبت، ولم يُحرم من الدّفء الأنثوي، مسألة يُحار العقل في تعليلها، وربّما كان لعمل الغلمان سقاة في مجالس الشّرب، وما يتبعها من مظاهر الأنس والغناء والطّرب، مع ما اشتهروا به من ظرف وجمال، أكبر الأثر في إلهاب المشاعر نحوهم، والتّطلّع الدّائم إلى قربهم، يُضاف إلى ذلك أنّ المجتمع الأندلسي في تلك الفترة قد بلغ من الحضارة والتّرف درجة يبدأ فيها التّحلّل، ويكون التّمتّع بالغلمان أحد مظاهر هذا التّحلّل، باعتباره ضربًا من التّنويع والتّجديد في ألوان المتعة"(٢).

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ ابن سهل الأندلسي الذي اشتهر بحبّه لغلامه موسى، يُعدّ أظهر من انفرد بهذا اللّون الشّعري في حقبة الدّراسة، أمّا بقيّة الشّعراء فقد نظموا فيه بين مقلٍّ ومعتدل، بما لا يعدّ خصيصة مميزة لفنونهم، وممّا أنشده ابن سهل في ذلك الغرض، قوله(٣): **(من الوافر)**

أشَمسٌ في غُلالَةِ أُرْجُوانِ وَبَدْرٌ طَالِعٌ في غُصْنِ بَانِ

(١) يُنظر: الآفات الاجتماعية في الأندلس، ص١٤٤.
(٢) التّصوير الفنّي للحياة الإجتماعية في الشّعر الأندلسي، ص٣٧٠.
(٣) ديوان ابن سهل الأندلسي، ص٢٢٠.

وَثَغْـرٌ مَـا أَرَى أَمْ نَظْـمُ دُرٍّ وَلَحْظٌ مَا حَوَى أَمْ صَارِمَانِ

وَخَـــدٌّ فِيـــهِ تُفَّـــاحٌ وَوَرْدٌ عَلَيـهِ مِن العَقَارِبِ حَارِسَانِ

وَيَعْذُلُنِي العَوَاذِلُ فِيهِ جَهْلا عَزِيـزٌ مَـا يَقُـولُ العَـاذِلانِ

يصف الشّاعر في هذه الأبيات بعض مفاتن المحبوب، وصفاته الجسدية، التي جذبته إليه، وأوقعته في شباك غرامه، فيشعر القارىء للوهلة الأولى وكأنّه أمام قصيدة غزل أنثوي، حتّى يسعفه الشّاعر بقرينة تدلّ على مراده، مستعينًا في ذلك بأسلوب الحوار والقصّ؛ لتطوير تجربته، وتمكينه من الإسهاب في الحديث عن هيامه ووجده، قائلا[1]:

فَقَـالوا: عَبْـدُ مُوسَـى قلـتُ: حَقًّـا فَقَالوا: كَيف ذَا؟ قُلتُ: اشْتَرَانِي

فَقَـالوا: هَـل عَلَيـك بِـذَا ظَهِيـرٌ؟ فَقُلــتُ: نَعَــمْ عَلَــيَّ وَشَــاهِدَانِ

فَقَالوا: هَل رَضِيتَ تَكُون عَبْدًا؟ لَقَــدْ عَرَّضْــتَ نَفْسَــكَ للهَــوَانِ

فَقُلْــتُ: نَعَــمْ أَنَــا عَبْــدٌ ذَلِيــلٌ لِمَــنْ أَهْـوَى فَخَلُّــونِي وَشَــانِي

بِنَفْسِـــي مَـــنْ يُفَـــدِّينِي بِـــنَفْسٍ جَعَلْــتُ فِــدَاهُ لَمَّــا أَنْ فَــدَانِي

ولم تختصّ بهذا اللّون الشّعري طبقة بعينها، بل انشغل به بعض الأمراء والوزراء، والقادة، والفقهاء[2]، فمن الوزراء لسان الدّين ابن الخطيب، حيث يقول متغزّلا في غلام أسود حالك اللّون، وقد عاب عليه اللائمون[3]: **(من الكامل)**

قَـالُوا كَلِفْـتَ بِـهِ غُلامًـا حَالِكًـا فَـأَجَبْتُهُمْ لِـي فِيـهِ مَـا يَشْـفِي المُهَـجْ

مَهْمَـا جُنِنْـتُ بِـهِ هَوًى وَصَبَابَةً عَلَّقْـتُ فَـوقِي مِنْـهُ حِـرْزًا مِـن سَـبَجْ[1]

(١) ديوان ابن سهل الأندلسي، ص٢٢٠.
(٢) يُنظر: التّصوير الفنّي للحياة الاجتماعية في الشّعر الأندلسي، ص٣٧١.
(٣) ديوان لسان الدّين بن الخطيب ٢١٦/١.

ومن الفقهاء، الشّاعر عبدالكريم القيسي، إذا يقول في واحدة من مقدّمات قصائده المدحيّة(٢): **(من الرمل)**

مَن عَذِيرِي فِي هَوَى ظَبْيٍ حَسَنْ ... ذِي جُفُونٍ سَاحَرَاتٍ وَلَسَنْ

مَلَكَ القَلبَ وَأضْحَى مُعْرِضًا ... فَنَفَى إعْرَاضُهُ عَنِّي الوَسَنْ

قَادَنِي نَحْوَ هَوَاهُ عَنْوَةً ... بِزِمَامٍ مِن سَنَاهُ وَرَسَنْ

ومن الغريب أن ينظم الشّاعر عبدالكريم القيسي، وأقرانه من أصحاب الشّخصيّات الفقيهة الورعة، والحسّ الوطني الرّفيع، في مثل هذا اللّون الخليع من الشّعر؛ لذا يُرجّح أن يكون صدور ذلك منهم على غير حقيقته، وأنّه نظمٌ فنّيٌّ فقط؛ يسعون من ورائه إلى تأكيد براعتهم الشّعرية، والتّدليل على تعدد مواهبهم الأدبيّة بالخوض في شتّى الأغراض والموضوعات.

وهكذا نجد أنّ عادة التّغزّل بالغلمان كانت "ظاهرة اجتماعية متفشّية في المجتمع الأندلسي، أسرف في تصويرها الشّعراء، حتّى هؤلاء الذين ترتبط أسماؤهم بسماتٍ من الوقار قد تورّطوا في إنشاء شعر الغزل بالغلمان، بحيث يُخيَّل لمتابع الدّراسة في حقل المجتمع الأندلسي أنّ هذه العادة الغريبة قد أصبحت جزءًا من كيان ذلك المجتمع"(٣).

ولمّا كان الشّاعر عبدالكريم القيسي هو آخر شعراء الأندلس الإسلامية من أصحاب الدّواوين، فإنّ شهادته على سوءِ الأحوال الاجتماعية في تلك الآوانة ذات قيمة كبيرة؛ لأنّها شهادة عيان، ولأنّها ليست شهادة طرف أجنبي يكتفي بمعاينة الأحداث وتسجيلها، بل هي شهادة إنسان معنيّ من الدّرجة الأولى بتصوير حياته،

---

(١) السّبج: الخرز الأسود، لسان العرب، مادّة (سبج)، ١٩١٣/٣.
(٢) ديوان عبدالكريم القيسي، ص١٨٥.
(٣) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشّكعة، ط٧، دار العلم للملايين، لبان- بيروت، ١٩٩٢م، ص٥٤.

وحياة معاصريه، في مختلف وجوهها، وأدقّ دقائقها، تصويرًا كثيرًا ما يأخذ صبغة الشّكوى والتّذمّر والاستياء من فساد الأوضاع، وضياع الدّين، واختلال القيم(١).

وإذا كان الشّاعر يخصّ بتصويره ذاك مدينته بسطة وأهلها، فإنّ ما ينطبق عليها ينطبق بلا شكّ على البقيّة الباقية من مدن الأندلس، فجميعها كيانٌ واحدٌ، يعيش تحت رايةٍ واحدةٍ، ويمرّ بالظّروف ذاتها، ومن أهمّ المساوىء الأخلاقية التي نبذها القيسي في ديوانه: فساد الأخلاق، وانعدام المثل العليا، وانتشار الظّلم بمختلف أشكاله، فلم يعد للصّداقة عندهم حقّ، ولا لأمر الإمام نفاذ، ولا لحكم الشّرع حرمة(٢):

(من الطويل)

خَلِيلَـيَّ مَـا مِثْلِـي يُقِـيمُ ذَلِـيلا ... وَيَحْمِلُ مِن ضَيمِ الزَّمَانِ ثَقِيلا

وَيَرْضَـى بَعَـيشٍ لا يـزَالُ بِبَسْـطَةٍ ... يُجَدَّدُ مَن خَطْبِ الهُمُومِ جَلِيلا

فَـلا تَعْـذِلانِي فـي رَحِيلِـي عَنْكُمَـا ... فَـإِنِّي لِمَـا أَلْقَـى عَزَمـتُ رَحِـيلا

فَقَـدْ سَـئِمَتْ نَفْسِـي المَقَـامَ بِبَلْـدَةٍ ... تَغَيَّـرَ فِيهَـا مَـنْ تَخَـذْتُ خَلِـيلا

وَأَبْدَى عَبُوسَ الوَجْـهِ مِن بَعْدِ بِشْرِهِ ... وَصَيَّرَ لِي الودَّ الصَّحِيحَ عَلِيلا

وَدَانَ بِمَنـعِ الحَـقّ وَالحَـقُّ وَاجِـبٌ ... وَهَـيَّجَ وَجْـدٌ فـي الحَشَـا وَغَلِـيلا

وَلَـمْ يَلْتَفِـتْ أَمْـرَ الإِمَـامِ وَحُكْمَـهِ ... وَرُدَّ حُسَـامُ العِـزِّ مِنْـهُ فَلِـيلا(٣)

وَلَـمْ يَرْعَ حُكمَ الشَّرْعِ فـي ذَاكَ عَامِدًا ... وَكَـانَ بِـزَعْمِ الشَّـرْعِ فيـهِ كَفِـيلا

فكلّ ما لاحظه الشّاعر من تغيّر النّاس عليه، وشعوره بالذّلّ والهوان حتّى ممّن اتخذهم أصدقاء مقرّبين، جعله يسأم الحياة بموطنه الأصلي الذي نشأ فيه، وتربّى على أرضه، ويبحث عن موطن آخر يعترف للرّجال بالمكانة والفضل، ويمنحهم ما

(١) يُنظر: البسطي آخر شعراء الأندلس، د. محمّد بن شريفة، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٨٥م، ص١٨٥: ٢١٢، واستشعار نهاية الأندلس في ديوان عبدالكريم القيسي الأندلسي، د. حسناء الطرابلسي، ط١، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، عدد "٥"، ١٩٩٠م، ص٤٤٥: ٤٥٠.
(٢) ديوان عبدالكريم القيسي، ص١٢٧.
(٣) فلول السّيف: كسور في حدّه، لسان العرب، مادّة (فلل)، ٣٤٦٥/٥.

يليق بهم من الاحترام والتّقدير، وغير ذلك من سماتٍ أخلاقية لم يعد لها وجود في مجتمعه الأوّل؛ ويرى أنّه من الصّعب على أمثاله العيش في نطاق هذا الظّلم البيّن الذي حلّ بوطنهم، وبات يستولى على مكانهم، طالبًا من خليليه المخلصين ألا يلوما عليه رحيله؛ لأنّه لن يسمع لقولهما، ولن يحيد عن قصده أبدًا، فيقول(١):

فَكَيــفَ لِنَفْسِــي أن تُقِــيمَ بِبَلْــدَةٍ ... تُشَــاهِدُ فِيهَــا مِثْــلُ ذَاكَ ثَقِــيلا

فَــإنَّ مِــن العَجْــزِ الثَّــوَاءَ بِمَنْــزِلٍ ... يَكُــونُ بِــهِ الظُّلْــمُ الــذّمِيمُ نَــزِيلا

فَإيَّاكُمَــا عَــذْلِي فَلَسْــتُ بِسَــامِعٍ ... أَبَيْــتُ بِــأنْ أصْــغَى لَــهُ وَأمِــيلا

لَعَــلَّ الــذِي ألقَــاهُ يَــذْهَبُ جُمْلَــةً ... وَأُبصِــرُ وَجْهًــا للسُّــرُورِ جَمِــيلا

بِلُقْيَــا رِجَــالٍ فــي مَــوَاطِنِ طَالَمَــا ... بَنَــتْ وَبَنُــوا فَخْــرَ الرِّجَــالِ أثِــيلا

وَأَلْفَــى لَــدَيهِمْ مَــن أتَــاهُمْ بِأرْضِــهِمْ ... مِن الفَضْلِ حَظًّا فــي النُّفُوسِ جَزِيلا

وَظِــلا ظَلِــيلا فــي رِيَــاضِ تَــنَعُّمٍ ... يَطِيــبُ وَمَثْــوًى للفَتَــى وَمَقِــيلا

وَسَــعْدًا بِمَــا يَهْــوَى الفُــؤَادُ مُسَــاعِدًا ... وَأُنْسًــا وُصُــولا بُكْــرَةً وَأصِــيلا

هُنَالِكَ مَا بِي مِن خُطُوبٍ عَظِيمَةٍ ... يَخِــفُّ عــن القَلــبِ القَــرِيحِ قَلِــيلا

وإذا كان الشّاعر في هذه القصيدة قد عمّم نقده لفساد الأوضاع في مجتمعه، فإنّ من يقرأ شعره يجده في مواضع أخري يميل إلى التّدقيق والتّفصيل، فيتناول في كلٍّ منها قضيّة من القضايا، ويصف وجهًا من وجوه الفساد والانحلال التي أصابت البلاد في تلك المرحلة الحرجة من تاريخها، ومن بينها: حادثة تعطيل وظائف الجامع الأعظم بمدينة بسطة، كالإقراء والتّوثيق وخطبة الجمعة، وغيرها من الخطط الدّينية، حيث يقول(٢): **(من البسيط)**

(١) ديوان عبدالكريم القيسي، ص١٢٨.
(٢) ديوان عبدالكريم القيسي، ص٢٨٤.

مَـا للـدُّمُوعِ بِصَـفْحِ الخَـدِّ تُطَّـرَدُ ... وَللضُّـلُوعِ بِنَـارِ الوَجْـدِ تُتَّقَـدُ
وَللجُفُـونِ جَفَاهَـا نَومُهَـا فَغَـدتْ ... وَكُحْلُهَـا السَّـهَرُ المعلُـومُ وَالسُّـهْدُ
خَطْـبٌ أَلَـمَّ فَلَـمْ يَسْـطعْ تَحَمّلـه ... لِفَـرْطِ وَطْأَتِـهِ قَلْـبٌ وَلا خَلَـدُ
تَصَدَّعَتْ كَبِدُ الدِّينِ الحَنِيفِ لَـهُ ... فَالـدّينُ لَـيسَ لَـهُ مِـنْ بَعْـدِهِ كَبِـدُ
وَفُـتَّ فـي يـدِهِ فَتًّـا فَلَـيسَ لَـهُ ... يَـدٌ تَمُـدُّ لِـبَطْش لا وَلا عَضُـدُ

وكان أثر تلك الفاجعة عظيمًا على قلوب النّاس، بل والطّبيعة من حولهم، فقد شاركتهم تلك الحالة الوجدانية الأليمة، متمثّلة في النّجوم التي تردّت من مطالعها حزنًا، واعتراها الهمّ والكمد، والأرض التي دارت لشدّة هول الواقعة بمن فيها، والآفاق التي عادت مظلمة برغم طلوع الشّمس في وضح النّهار، والرّيح التي لطمت وجه البطاح تعبيرًا عمّا أصابها من وجدٍ وأسى، والبحر الذي اضطربت أمواجه من فرط غيرته على أمور الدّين والدّنيا، ولا عجب، فهذه الوظائف، ولا سيّما التّوثيق كان بمثابة روح الحياة، وشعار الإسلام في ذلك الوقت، حيث تُحفظ به المعاملات، وتُصان معه حقوق العباد، يقول[1]:

عَـدِمْتُ صَـبْرِي لَـهُ وَالنَّـاسُ كُلُّهُـمُ ... مِـن أَجْلِـهِ مَـالَهمْ صَـبْرٌ وَلا جَلَـدُ
حَتَّـى النُّجُـومُ تَـرَدَّتْ مِـن مَطَالِعِهَـا ... حُزْنًـا لَـهُ وَاعْتَرَاهَـا الهَـمُّ وَالكَمَـدُ
وَالأَرْضُ مَـادَتْ بِمَـنْ فِيهَـا لِمَوْقِعِـهِ ... فَالطَّودُ مِنهَا اسْتَوَى فـي الميدِ وَالوَهدُ
حَتَّـى لَـهُ عَـادَتِ الآفَـاقُ مُظْلِمَـةٌ ... وَالشَّـمْسُ طَالِعَـةٌ وَالنُّـورُ مُتَّقَـدُ
وَالرّيحُ تَلْطُمُ فـي وَجْـهِ البِطَـاحِ لَـهُ ... حُزْنًـا بِمَـا نَالَهَـا مِنْـهُ وَمَـا تَجِـدُ

(١) ديوان عبدالكريم القيسي، ص٢٨٤.

وَالبَحْرُ مُضْطَرِبٌ مِن فَرْطِ غِيرَتِهِ وَقَدْ عَلاهُ لفَرطِ الغِيرَةِ الزَّبَدُ

ولا يستثني الشّاعر من حالة الحزن التي خيّمت على كافّة عناصر المجتمع المختلفة، ومظاهر الطّبيعة الغنّاء سوى فقيهين اثنين، كانا وراء هذا التّعطيل، مبيّنًا السّرور الذي قد انتابهما إثر ذلك العمل المُشين، فيقول داعيًا عليهم(١):

إلا فَقِيهَينِ لا كَانَا وَلا وُجِدَا في النَّاس لَمْ يَجِدَا مِثْلَ الذِي وَجَدُوا

سُرَّا لِمِصْرِهِمَا بَعْدَ الظُّهُورِ بِمَا لمِصْرِهِ في الوَرَى لَمْ يَرْضَهُ أَحَدُ

سُرَّا لَهُ بَعْدَمَا التَّوثِيقُ زَيَّنَهُ بِأَنْ يُعَطَّلَ مِنْهُ الهَدْيُ وَالرَّشَدُ

عَارٌ عَلَى أَهْلِهِ جَهْلا لِنَقْصِهِمَا وَكَونُهُمْ بِالكَمَالِ الظَّاهِرِ انْفَرَدُوا

فَعَطَّلا رَسْمَهُ الشَّرْعِيّ وَا أَسَفَا وَأَبْطَلاه وَلا لَومٌ وَلا فَنَدُ

وَكَانَ رُوحًا لَهُ مِن بَسْطَةٍ جَسَدُ إذْ عَطَّلاهُ فَلا رُوحٌ وَلا جَسَدُ

ثمّ يأخذ في التّساؤل عن سبب تعطيل التّوثيق وإهماله، وترويع الحاملين له – الموثّقين– وغيرها من التّساؤلات التي تدلّ على ما بداخله من شعورٍ حادٍّ بالغضب والحيرة والتّعجّب من فعل هذين الفقيهين، معتبرًا أنّهم بذلك قد خانوا الشّريعة، إذ حادوا عن طريق الحقّ، واستبدلوه بالباطل، متمنّيًا لو يُقامُ عليهما حدُّ القصاص، دلالة على بشاعة ما ارتكبوه، يقول(٢):

إنِّي لأعْجبُ مِنهُمْ كَيف أعْجَبهمْ تَضْييعُ وَاجِبهُ أو حَقّهُ جَحَدُوا؟!

أو كَيفَ سَاغَ لَهُمْ إهْمَالُهُ سَفَهًا وَالشَّمْلُ مُؤتَلِفٌ وَالدِّينُ مُتّحِدُ؟!

بَلْ كَيفَ رَاعُوا الرِّجَالَ الحَامِلِينَ لَهُ حَتَّى بِتَرْوِيعِهِمْ عَنْ حَمْلِهِ قَعَدُوا؟!

وَهُمْ إذَا نَظَرُوا بِالحَقِّ وَاعْتَبَرُوا فَقَدْرُهُمْ عَن مَقَامِ العِزِّ مَبْتَعَدُ

(١) ديوان عبدالكريم القيسي، ص٢٨٥.
(٢) ديوان عبدالكريم القيسي، ص٢٨٥.

خَلُّوا صَرِيحَ كِتَابَ اللهِ وَاسْتَنَدُوا ... لِبَاطِلٍ بِئْسَ مَا عَمْدًا لَهُ اسْتَنَدُوا

خَانُوا الشَّرِيعَةِ بِالفِعْلِ الذي فَعَلُوا ... يَا لَيتَ شِعْرِيَ هَلْ مِنْهُمْ لَهَا قَوَدُ؟![1]

يَا وَيْحُهُمْ يَعْلَمُونَ الحَقَّ ثُمَّ هُمْ ... أَوْدَى بِهِمْ كَلُّهُمْ عَنْ سُبْلِهِ الحَيَدُ

ومن أبرز الآفات الاجتماعية التي نقدها الشّعراء قبيل سقوط غرناطة، فساد القضاء، حيث تقدّم له من ليسوا بأهله، ولا يصلحون لإدارة شؤونه، فصاروا يصدرون الأحكام عبثًا، لا يرعون فيها للدّين حرمة ولا اعتبارًا، ولا يهتمّون بإثبات حقٍّ لمظلوم، أو إقامة دليلٍ على طغيان ظالم، فجاءت أحكامهم جائرة، تتنافي مع الشّريعة الأسلامية، وتخالف ما تربّى عليه المجتمع من أعراف، فأمام هذا الوضع المسيء لم يقف الشّعراء صامتين، بل ثاروا وغضبوا وانتقدوا وهجوا، ولم يتورّعوا عن تسمية بعض هؤلاء القضاة الضّالّين بأسمائهم؛ ليكونوا عبرة لغيرهم ممن اشتروا دنياهم بآخرتهم، فباعوا أنفسهم لأعداء دينهم ودولتهم[2].

ومن هؤلاء القضاة الظّالمين الجبابرة، القاضي "ابن المفضّل"، الذي سوّلت له نفسه العيث في الأرض فسادًا، فغيّر وجه الدّين، وحوّل أجواف المساجد من بيوتٍ للعبادة إلى سجون لتنفيذ الأحكام والعقوبات، وأباح النّكاح بلا صداق معلوم؛ ممّا أثار حفيظة القيسي، فأنشد قصيدة يهجوه فيها، ويرميه بالجاهلية والإلحاد، والعناد والإصرار على الباطل، والجبروت والاعتداء على صريح نصوص الدّين، قائلا[3]:

(من الكامل)

تَبًّا لِقَاضِي بَسْطَةِ ابنِ مُفَضَّلِ ... تَبًّا لَهُ فِيهِ يَرُوحُ وَيَغْتَدِي

فَلَقَد أَتَى مِن حُكْمِهِ بِعَجَائِبٍ ... أَمْثَالُهَا فِي عَصْرِنَا لَمْ تُعْهَدِ

فَالسِّجْنُ عِندَ سِوَاهُ مَعْرُوفُ المَحَلْ ... لِ وَعِنْدَهُ فَالسِّجْنُ جَوفُ المَسْجِدِ

وَيَرَى النِّكَاحَ بِلا صَدَاقٍ جَائِزًا ... رَأيَّ الغَوِيِّ الجَاهِلِيِّ المُلحِدِ

(١) القود: القصاص، ومنه قولهم: أقدت القاتل بالقتيل أي قتلته به، لسان العرب، مادّة (قود)، ٣٧٧١/٥.
(٢) يُنظر: البسطي آخر شعراء الأندلس، ص١٩٤، واستشعار نهاية الأندلس، ص٤٤٨.
(٣) ديوان عبدالكريم القيسي، ص٢٤٣.

وَيُغَيِّــرُ الأَحْكَــامَ عَمَّــا أُصِّــلَتْ تَغْيِيــرَ جَبَّــارٍ عَنِيــدٍ مُعْتَــدِ

ومن القضايا الاجتماعيّة الهامّة التي تناولها بعض الشّعراء بالنّقد، وأكثروا فيها النّظم، قضيّة الأحباس- الأوقاف حاليًا- التي كانت للأئمّة، والفقهاء، والمقرئين، والمُعلِمين موردًا أساسيًّا للرزقٍ، تعينهم على استكمال مسيرتهم في الحياة، والتّغلّب على ارتفاع مستوى المعيشة، وتدلّنا كتب النّوازل الفقهيّة على أنّ الأحباس في مدينة بسطة وغيرها من المدن والقرى الأندلسية كانت كثيرة الوجوه، ومتعدّدة المصادر، تعود بالنّفع على طائفة غير قليلة من عناصر المجتمع في ذلك العصر، ولكن هذه المؤسّسة العظيمة قد أصابها قُبيل سقوط الخلافة كثيرٌ من مظاهر الضّعف والانحلال، ممّا أدّى إلى إهمال مصالح النّاس، وضياع حقوقهم(١).

وكان القيسي أحد الشّعراء الذين أشاروا إلى ذلك، فنراه في مقطّعة له يخاطب القاضي أبا عمرو بن منظور(٢)، ويحثّه على إعادة النّظر في أمر الأحباس، واتّقاء الله فيها، وحفظها من البغاة المعتدين الذين أضاعوها وخرّبوها، حتّى أصبحت في عداد الأربع الدّرس، ويحثّه كذلك على ضرورة تعيين مشرفين ونظراء عليها، يتّصفون بالشّرف والأمانة، والطّهر والنّزاهة، ليحفظوا مواردها، ويُعطوها إلى مستحقّيها على الوجه الأمثل، إذ يقول(٣): **(من البسيط)**

يَاأَيُّهَـا المَاجِـدُ المَـأمُولُ جَانِبُـهُ لِحِفْـظِ الاحْبَـاسِ مِـن عَـادٍ وَمُفْتَـرِسِ

اللهُ فِيهَا فَقَدْ ضَـاعَتْ وَقَدْ خَرِبَتْ وَأَصْـبَحَتْ فِـي عِـدَادِ الأَرْبُـعِ الـدُّرُسِ

وَلِلمَسَـاجِدِ يَسْـرِي أَمْـرُ ضَـيْعَتِهَا إِنْ حَقَّهَـا دُونَ أَحْبَـاسِ الـبِلادِ نُسِـي

وَقَـدْ أَتَتْـكَ بِمَـا تَلْقَـاهُ شَـاكِيَةً مَـعْ أَنَّهَـا وُصِـفَتْ بِـالعَيّ وَالخَـرَسِ

وَمُشْـرِفًا وَشَـهِيدَينِ انْظُـرَنَّ لَهَـا وَنَـاظِرًا طَـاهِرَ الأَعْـرَاضِ مِـن دَنَـسِ

(١) يُنظر: البسطي آخر شعراء الأندلس، ص١٤١، ٢٠٥، واستشعار نهاية الأندلس، ص٤٤٦.
(٢) هو أبو عمرو بن منظور، أحد رجالات دولة بني الأحمر في النّصف الثّاني من القرن التّاسع، تولّى قضاء مدينتي مالقة وبسطة، ثمّ تولّى قضاء غرناطة، ت(٨٨٨هـ)، ينظر ترجمته في الدّيوان، ص٤٩٣.
(٣) ديوان عبدالكريم القيسي، ص٢٧٣.

لا زَالَ جَانِبُ ذَاكَ المَجْدِ مُرْتَفِعًا مُبَلِّغَ القَصْدِ مِنهُ كُلُّ مُلْتَمَسِ

ثمّ يأخذ القيسي بعد ذلك في تصوير مدى إهمال المساجد الذي يُغني ظهوره عن الإفصاح به أو التّبيين، وأكل نظّار الأحباس لأموال الدّولة الموقوفة عليها، مشخّصًا إيّاها في صورة إنسان واعٍ، يفيض قلبه بمشاعر الحزن والأسى، فهي تقضي أوقاتها باكية، تشكوا لأهل الدّين والتّقوى سوء ما حلّ بها، ولا يغيب عن ذاكرتها أولئك الأوفياء المخلصين الذين أسّسوا أعمدتها، واعتنوا بكافّة أمورها، وأمدّوها بكلّ ما يكفي لإدارة أحوالها، ولكنّهم الآن في تعداد الموتى، لا يستطيعون لها نصرًا، فمن بعدهم سيشيدُ هدمها، ويكسو جدرانها، مؤكّدًا على لسان حالها أنّ خرابها سيكون نذير شؤمٍ لموتها، وموت الدولة على إثرها، يقول[1]: **(من الكامل)**

فَبِهِ حَيَاةُ مَسَاجِدٍ إهْمَالُهَا لِظُهُورِهِ يُغْنِي عَنِ التَّبيينِ

تَبْكِي العُيُونُ وَلا تَمَلُّ لِمَا بِهَا مِن ضَيعَةٍ مِن دَمْعِهَا بَهتُونِ

هَانَتْ عَلَى عُمَّارِهَا فَتَهَاوَنُوا مِنْهَا بِعَلْقٍ لا يَنَالُ ثَمِينًا

حَتَّى يَخَاف أُلُوا النُّهَى أن يَنْتَهِي بِهِمُ التَّهَاوُنِ لانْجِرَارِ الهُونِ

فَتَهَدَّمَتْ بَعْدَ البِنَاءِ وَأصْبَحَتْ مِن عُرْيِهَا فِي خِلْعَةِ المِسْكِينِ

تَشْكُو لَكُمْ بِلِسَانِ حَالٍ قَائِلٍ مَنْ ذَا الذي يَبْنِينِي أوْ يَكْسُونِي؟!

لَهْفِي عَلَى قَومٍ بَنُونِي وَاعْتَنَوا مِنْ وَقْفِهِمْ لِي بِالذي يَكْفِنِي

مَاتُوا فَمَوتِي بِالخَرَابِ مُحَقَّقٌ إذْ بَعْدَهُمْ لَمْ يَبْقَ مَن يُحْيينِي

وَجَمِيعُ أوْقَافِي عَلَى مَا حَلَّ بِي مِن فَاقَةٍ تُجْبَى وَتُؤكَلُ دُونِي

---

(١) ديوان عبدالكريم القيسي، ص٣٩٢، ٣٩٣.

وأخيرًا فإنّ هذه المساجد تتوسّم في المخاطب كلّ خير، وتعلّق أملها ورجائها فيه لتغيير هذا المنكر الفاشي وتقويمه، فهذا ممّا يليق به، ويقترن بجميل صفاته، حاكمًا بأن العمل على إصلاح بيوت الله فرض عين على كلّ مسلمٍ يتهيّأ له ذلك بما أوتيه من قدرة وسلطه، يقول(١):

هَـذَا لَعَمْـرِي مِـنْكُمُ مُتَحَقِّـقٌ تَغْيِيـرُهُ فَـرْضُ عَلَـى التّعيـين
وَالمُنْكَـرُ الفَاشِـي بِكُـمْ تَغْيِيـرُهُ أَضْـحَى حَقِيقَـةَ أَيَّمَـا مَقْـرُونِ
لِوُقُوعِـهِ فَرْضًـا وَأَنْـتُمْ خَيـرُ مَـن يَهْـتَمُّ بِـالمَفْرُوضِ وَالمَسْـنُون

فهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدلّ على "حالة الانهيار الشّديد والتّدهور التي آلت إليهما الأحباس في بلاد الأندلس قبيل سقوطها، وأنّ صور الظّلم، والفساد، وأكل الأموال بالباطل أخذت تتفشّى في كيان المجتمع الأندلسي حتّى عمّت المساجد، بيوت الله ومعقل الدّين، فتعطّلت وظائفها، وتوقّفت نشاطاتها، بعد أن كانت قلب البلاد النّابض، ومصدر الحركة والحياة فيها، وحُكِمَ على أئمّتها، وقرّائها، وفقهائها، وجميع العاملين عليها بالبطالة"(٢).

ولا يخفى على عاقلٍ أنّ ذلك يُعدّ أعظم نذير بالسّوء، وأكبر دليل على قرب النّهاية، وبداية الانحدار نحو هاوية الضّعف والتّفكّك، والذّلّ والهوان، حيث توالى سقوط المدن الأندلسية واحدة إثر الأخرى، حتّى انتهى بمدينة غرناطة، آخر معاقل المسلمين بالأندلس.

(١) ديوان عبدالكريم القيسي، ص٣٩٣.
(٢) استشعار نهاية الأندلس، ص٤٤٧.

المبحث الثاني
تصوير العلاقات الاجتماعية بين الأدباء والشّعراء، وذوي المناصب
(شعــر الإخوانيــات)

من أهمّ ضروب الشّعر الاجتماعي ضرب يعرف بشعر الإخوانيّات، يقوم على تصوير الصّلات والرّوابط التي كانت تربط الأصدقاء من الأدباء والشّعراء، وأصحاب المكانة العالية، والمنزلة الرّفيعة في الدّولة؛ لذا فقد عرّفه بعض الباحثين بأنّه "ما يتبادله الأدباء والكتّاب فيما بينهم من رسائل، أو ما يجري بينهم من نوادر ومداعبات شعرية، وغير ذلك ممّا يتطارحه المتوادّون في مكاتباتهم، ويتوارد على قرائح الشّعراء من ذكرى الأصدقاء، أو مجالس الأحباب"(١).

ومن الملاحظ أنّ شعر الإخوانيّات وإن بدا شخصيًّا فرديًّا، إلا أنّه يعدّ في مجمله صورًا بارزة من أهم صور المجتمع، فهو وليد العلاقات الوجدانية بين أفراده، وكثيرًا ما يحيون فيه حياةً نفسيةً صادقةً، يتبيّن لنا من ورائها مجموعة من أخلاقيّاتهم، والصّفات المشتركة بينهم، ويأتي هذا اللّون الشّعريّ في مقدّمة الفنون المستحدثة، التي ترتبط كثيرًا بالبيئات المستقرة ثقافيًّا، الثّابتة حضاريًّا؛ ولذلك فإنّنا نجده موفورًا في بيئة الأندلس بصورة فعّالة ومؤثرة بدءًا من عصر الإمارة، ثمّ ازدهر وانتعش في عصر الطّوائف والمرابطين والموحّدين، ثمّ العصر الغرناطي الذي كثر فيه هذا الشّعر كثرة مفرطة(٢).

ولشعر الإخوانيّات ألوان متعدّدة، ورد منها في كتاب صبح الأعشى سبعة عشر لونًا، فقال: "من مقاصد المكاتبات الإخوانيّات، وهي على سبعة عشر نوعًا: التّهاني، والتّعازي، والتّهادي والملاطفة، والشّفاعات والعنايات، والتّشوّق، والاستزارة، واختطاب

(١) أروع ما قيل في الإخوانيات، إميل ناصيف، ط. دار الجيل- بيروت، ١٤١٦هـ=١٩٩٦م، ص٥.
(٢) يُنظر: أبو الطّيب المتنبي في مصر والعراقين، د. مصطفى الشّكعة، ط٢، الدّار المصرية اللّبنانية، ٢٠٠١م، ص٢١٣، والإخوانيات في الشّعر الأندلسي، د. علي الغريب محمّد الشناوي، ط١، مكتبة الآداب القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٢.

المودّة وافتتاح المكاتبة، وخطبة النّساء، والاسترضاء والاستعطاف، والاعتذار، والشّكوى، واستماحة الحوائج، والشّكر، والعتاب، والعيادة والسؤال عن حال المريض، والذّمّ، والأخبار، والمداعبة"[١]، وسيقتصر البحث على ذكر المشهور من تلك الألوان؛ حتّى لا يطول المقام، فيأتي في مقدّمتها:

١- شعر التّهانـــي:

التّهنئة لغة: خلاف التّعزية، يُقال: هنَّأهُ بالأمر والولاية هنأً، وهنَّأهُ تهنئةً وتهنيئًا إذا قُلت له ليهنِّئك، والعرب تقول: ليهْنِئْك الفارس بجزم الهمزة، وليهْنيْكَ الفارس بياءٍ ساكنةٍ، ولا يجوز لِيهْنِك كما تقول العامّة[٢].

وهذا اللّون من شعر الإخوانيات يزدهر في ظلّ العلاقات الاجتماعية القوية، حيث تتعدّد المناسبات التي تدور في فلكها التّهاني، وقد دلّل بعض الباحثين على وجود شعر التّهاني منذ العصر الجاهلي، مرورًا بالعصر الأموي، فالعباسي، حيث وجد أنّها في ذلك الأخير "تزدهر فتكثر وتتنوّع؛ وذلك لما بلغه المجتمع العربي في هذا العصر من رقي وتحضّر، فقد تعدّدت المناسبات الاجتماعيّة وتعدّدت معها التّهاني الدّائرة في فلكها"[٣].

وإذا تصفّحنا ديوان الشّعر الأندلسي، وجدناه يحفل بالعديد من نماذج هذا الفن، الذي تنوعت موضوعاته فشملت التّهنئة بالأعياد، والإبراء من المرض، والرّجوع من السّفر، وتولي الملك، والميلاد، وهلاك الطّغاة، وغيرها من المناسبات السّعيدة، وتأتي التّهنئة بالمولود في مقدمة هذه المناسبات، يُمثّل لذلك قول الرّصافي البلنسي[٤]:

(من الكامل)

---

(١) صبح الأعشى ٤٣٧/٩.
(٢) لسان العرب، مادّة (هنأ)، ٤٧٠٧/٦.
(٣) الإخوانيات في الشّعر العباسي، محمد عثمان الملا، ط١، نادي المنطقة الشّرقية الأدبي، المملكة العربية السّعودية، ١٤١٢هـ، ص٨٥.
(٤) هو محمّد بن غالب الرّفاء البلنسي، أبو عبدالله، شاعر وقته في الأندلس، أصله من رصافة بلنسية، وإليها نسبته، كان يرفأ الثّياب ترفعًا عن التّكسب بشعره، سار نظمه في الآفاق، ت(٥٧٢هـ)، يُنظر ترجمته في: سير أعلام النّبلاء، شمس الدّين بن محمّد بن قايْماز الذّهبي، ت(٧٤٨هـ)، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط، ط٣، مؤسّسة

سرّاءُ شَبَّ بهَا الزَّمَانُ الأشيَبُ وَسَمَاءُ مَجدٍ زِيدَ فِيهَا كَوكَبُ
وَعُلُوُّ مَنْزِلَةٍ تُشَادُ بِأَزْهَرٍ كَالنَّجْمِ إلا أَنَّهُ لا يَغْرُبُ
يَأبَى لَهُ خلقَ الوَلِيدِ إذَا هَفَا كَرَمُ المَوَاضِعِ وَالنِّجَارُ الطَّيِّبُ
وُلِدَتْ بِمَوْلِدِهِ المَكَارِمُ والنَّدَى وَتَأَهَّبَ النَّادِي لَهُ وَالمَوْكِبُ
بُشْرَاكَ بالطِّفْلِ الذي هُوَ عِندَنا شِبْلٌ وَفي المَعْنَى هِزَبْرٌ أغْلَبُ

فالشّاعر يُهنّىء ممدوحه بطلوع مولوده الجديد، الذي غيّر حاله من الشّيب إلى الشّباب؛ لما حلّ بقلبه من أسباب السّعادة والسّرور، ويشبّهه بالنّجوم والكواكب المضيئة في عنان السّماء، ولكنّه يبالغ في الأمر ويُغلّب جانب المشبّه، فالنّجوم تظهر حينًا وتغرب حينًا آخرا، بينما الطّفل يبقى منيرًا، كما يصفه أيضًا بحسن خلقه وعلوّ منزلته، فهو فارس، شجاع، مقدام، كريم الخصال كوالده.

وقد يجمع الشّعراء في قصيدة واحدة بين أكثر من مناسبة، ومن ذلك قول ابن الأبّار القضاعي[1]، مهنّئًا أبا زكريّا الحفصي الذي كان يجلّه ويقدّره، بمناسبتين سعيدتين، هما عيد الأضحى المبارك، وطلوع مولودٍ جديد[2]: **(من مخلع البسيط)**

للهِ مِن نَجْلِه المُفَدَّى نَجْمٌ يَزِينُ الزَّمَان حُسْنًا
قَد بَهرَ البَدْر في سَنَاه وَمَا تَعدَّى الهِلالَ سِنًّا
سَمَّاهُ عُثْمَانَ إذْ نَمَاهُ يَسْلُبُ نَعْتَ السَّمَاح مَعْنَى
مَن عَدَّ مِنهُ أَبًا كَرِيمًا لَمْ تَعْدُ عَنهُ المَكَارِمُ ابْنَا

الرّسالة- بيروت ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م. ٧٤/٢١، ويُنظر النّصّ في: ديوان الرّصافي البلنسي، جمع وتقديم/ د. إحسان عبّاس، ط٢، دار الشّروق، ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م، ٣٩، ٤٠.

(١) هو محمّد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، أبو عبدالله، ابن الأبّار من أعيان المؤرخين، أديب من أهل بلنسية، وله شعر رقيق، ت(٦٥٨هـ)، تاريخ الإسلام، شمس الدّين ابن قايماز الذهبي، ت(٧٤٨هـ)، تحقيق/ د. بشار عوّاد معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م، ٨٩٦/١٤.

(٢) ديوان ابن الأبّار القضاعي البلنسي، ت(٦٥٨هـ)، تحقيق/ أ. عبد السّلام الهرّاس، ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المغرب، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م، ص٣٢١.

جَادَ بِهِ خَامِسَ الذَّرَارِي دَهْرٌ لَوَى بُرْهَةً وَضَنَّا
فَاهْتَزَّتِ العُلوَيَاتُ عِطْفًا وَافْتَرَّتِ المَكْرُمَاتِ سِنَّا

يُهنِّيء الشّاعر في هذه الأبيات أبا زكريّا بمولوده الخامس "عثمان"، الذي جاد به الزّمان بعد بخل، فيصفه بأنّه يُشبه نجوم السّماء وضاءة، ويفوق البدر نورًا وجمالا، رغم أنّه لم يتعدّ الهلال في صغر سنّه، ولا يخفى ما في التّشبيهين من الدّلالة على رفعة القدر، وعلوّ الشّأن، كما وصفه أيضًا بالجود، وهي أحد الشّمائل الكريمة التي ورثها عن والده، ويبالغ الشّاعر في التّعبير عن الفرحة التي عمّت أرجاء الكون بقدوم هذا المولود السّعيد، حيث جعل العُلا يهزّ أركانه طربًا، والمكرمات يضحك سنّها مشاركةً له في ذلك، ثمّ ينتقل إلى تهنئة الحفصي بالمناسبة الثّانية، قائلا(١):

مَولايَ هُنِّئتَ عِيدَ أَضْحَى أَضْحَى بِمِيلادِهِ يُهَنَّا
طَلَعْتَ كَالشَّمْسِ فِي ضُحَاهُ بِكُلِّ حُسْنٍ وَكُلِّ حُسْنَى
وَسِرْتَ تَمْشِي إلى المُصَلَّى هَونًا يُغَشِّي العُدَاةَ وَهْنَا
ثُمَّ أَبَحْتَ المُلُوكَ كَفًّا هَامُوا بِتَقْبِيلِهَا وَرِدْنَا
وَقَدْ مَلأتَ البِلادَ أمنًا وَقَد غَمَرْتَ العِبَادَ مَنًّا
فَلْيَهْنَءِ الدِّينُ أن حَمَاهُ مِنكَ إمَامًا حَبَاهُ يُمْنَا

ربط ابن الأبّار في قصيدته بين تهنئة الممدوح بحلول عيد الأضحى المبارك، وميلاد ولده عثمان، ثمّ أخذ في مديحه، فشبّه خروجه إلى المصلّى في ذلك اليوم بطلوع الشّمس، بجامع الحسن والإشراق في كل، ووصفه أيضًا بالعظمة والمهابة بين الملوك، خاتمًا بتهنئة أخرى، ولكنّها موجّهة للدّين الإسلامي الحنيف، إذ يهنّئه بالممدوح الذي قيّضه الله- تعالى- لحمايته ورفع رايته.

(١) ديوان ابن الأبّار القضاعي البلنسي، ص٣٢١.

ومن الجميل أنّ حكّام الأندلس وأمراءها كانوا على قدرٍ كبيرٍ من الفهم الدّيني، ومستوى رفيعٍ من الرّقيّ والتّحضّر، فأولوا الإناث من ذرّياتهم عنايةً فائقةٍ، وفرحوا بمولدهنّ فرحة غامرة، ممّا جعل الشّعراء ينظمون قصائدهم في التّهنئة بذلك اليوم العظيم، ومن ذلك قول ابن فركون[1]: **(من المتقارب)**

هَنِيئًــا هَنِيئًــا إمَــامَ الهُــدَى ... وَغَـوثَ الوجُـودِ وَغَيـثَ النَّـدَى
وَبُشْــرَى بِوَافِــدَةٍ قَــدْ أتَــتْ ... لَهَا شَرَفٌ حَازَ أقْصَى المَدَى
عَلَـى إثْـرِ مَـنْ جَـدَّ فـي سَـيرِهِ ... وَحَـادِي المَنَايَـا بِـهِ قَـدْ حَـدَا
وَلَـوْ كَـانَ يُفْـدَى لَكَانَـتْ لَـهُ ... نُفُــوسُ البَرَايَــا جَمِيعًــا فِــدَا
لَقَــد طَلَعَــتْ هَــذِهِ عِنْــدَمَا ... رَأتْ سَـيْفَهُ فـي الثَّـرَى أُغْمِـدَا
فَإنْ غَابَ بَدْرُ الدُّجَى مُشْرِقًا ... فَشَمْسُ الضُّحَى نُورُهَا قَدْ بَدَا
أنَــارَتْ وَمِــن شَــأنِهَا أنَّهَــا ... مَتَــى طَلَعَــتْ لَــمْ تَــدَعْ فرقَــدَا
فَــأيمِنْ وَأسْــعِدْ بِهَــا طَلعَــةً ... وَأعْظِــمْ وَأكْــرِمْ بِــهِ مَولِــدَا

فإذا كان ابن الأبّار في النّموذج السّابق قد جمع لممدوحه أبي زكريا الحفصي بين مناسبتين كلّ منهما تدعي إلى الفرح والسّرور، فإنّ ابن فركون في هذه القصيدة يجمع لسلطان غرناطة يوسف الثّالث بين مناسبتين، جاءت الأخيرة منهما لتجفّف ما أذرفته الأولى من غزير الدّموع، وتخفّف ما تركته في نفس صاحبها من أوجاع، وتمحي ما رسمته في قلبه من معالم الحزن والأسى، فقد عوّضه الله- تعالى- بتلك المولودة الجميلة عن فقده لأحد أولاده، وفلذة كبده، الذي كان يحبّه كثيرًا، ويرى فيه صفات الشّجاعة والنّجابة، فالشّاعر يُسَلّي ممدوحه، ويدعوه لأن ينظر إلى الجانب المبهج في حياته، فيستبشر خيرًا بميلاد ابنته، ويسعد بطلوعها، فما يغيب عن كوننا بدر الدّجى، إلا لتحلّ مقامه شمس الضّحى.

(١) ديوان ابن فركون، ص١٣٧.

ومن شعر التّهاني، التّهنئة بالشّفاء من مرضٍ ألم، على نحو قول إبراهيم بن الحاجّ النّميري[١]، بمناسبة شفاء السّلطان أبي عنان فارس بن علي المريني، أحد ملوك بني مرين في المغرب الأقصى[٢]: **(من الطويل)**

مَطَالِـــبُ إلا أنَّهُـــنَّ مَوَاهِـــبُ قَضَـى اللهُ أنْ تُقْضَـى فَـنِعمَ المَطَالِـبُ

شِـــفَاءُ أمِيـــرِ المُـــؤمِنِينَ وَإنَّـــهُ لأكْـرَمُ مَـنْ تُحْـدَى إلَيـهِ الرَّكَائِـبُ

وَكَمْ قُلْتُ غَابَ البَدْرُ وَالشَّمْسُ ضَلَّةٌ وَرَامَتْ عَلَى قَلْبِي الهُمُومُ النَّوَاصِبُ

وَلَـمْ يَغِبَـا لَكِـنْ شَـكَا الضُّـرَّ فَـارِسٌ وَأوْحَـشَ مِنْـهُ مَجْلِـسُ المُلـكِ غَائِـبُ

لَـكَ اللهُ يَـا خَيـرَ المُلُـوكِ وَخَيـرَ مَـنْ تَحِـنُّ لَـهُ حَتَّـى العِتَـاقُ الشَّـوَازِبُ

فبمرض السّلطان، وغيابه عن مجلس الحكم وتفقّد شؤون العامّة، قد تعكّر صفو الشّاعر، فرامت على قلبه الهموم والمصائب، وضاقت عليه الأرض بما رحبت؛ تمامًا كما يحلّ الظّلام، ويعمّ الخمول والسّكون على أرجاء الكون إذا غاب كلٌّ من الشّمس والقمر؛ لأنّهما مصدرا الطّاقة والنّور، اللّذان يمدّانه بأسباب الحركة والحياة، في تشبيه بلاغي جميل، يدلّ على مكانة الممدوح، ومنزلته العالية في قلوب رعيّته، وتأثيره العظيم في كيان دولته.

وللأديب الخضر بن أبي العافية[٣] قصيدة يهنّىء فيها الوزير الشّاعر ابن الجيّاب على شفائه من مرضٍ كان قد ألمّ بجسده، عبّر له فيها عن أواصر الصّداقة، ومشاعر الودّ والمحبّة بينهما، حتّى أنّه لو صحّ الفداء عنه في مرضه لفداه بنفسه دون تفكيرٍ أو تردّد، ومع ذلك لا يستطيع الوفاء بحقّه، ودعا له بالسّلامة من الحوادث

(١) هو أبو اسحاق، إبراهيم بن عبدالله بن محمّد بن إبراهيم بن أسد بن قاسم النّميري، المعروف بابن الحاجّ الغرناطي، والملقّب ببرهان الدّين، أديب أندلسي، من كبار الكتّاب، ولد بغرناطة، ثمّ رحل إلى المشرق، ثمّ إلى إفريقيّة "تونس"، ثمّ عاد إلى الأندلس، ت(٧٦٨هـ)، نفح الطّيب ٢/ ٥٣٤.

(٢) ديوان إبراهيم بن الحاجّ النميري، تحقيق/ د. عبدالحميد عبدالله الهرامة، ط١، المجمع الثّقافي- أبو ظبي، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م، ص٤٣، ٤٤.

(٣) هو أبو القاسم، الخضر بن أحمد بن الخضر بن أبي العافية، من أهل غرناطة، كان فارسًا في ميدان البيان، وتصرّف في الكتابة السّلطانية، ثمّ في القضاء، وانتقل في الولايات الرّفيعة النّبيهة، ت(٧٤٥هـ)، ينظر ترجمته في: الإحاطة ١/ ٢٨١.

كلّها، وبطول العمر، وأن يبقى كسابق عهده متصدّرًا في بلوغ المعالي، ضاربًا بسهمٍ وافرٍ في منتديات العلوم والآداب، وبحور الجود والهبات، كما دعا له بعد انقضاء الأجل المسمّى بزيارة النّبيﷺ في جنّة الخلد، فيقول[١]: **(من الكامل)**

تَفْـدِيكَ أَنْفُسُـنَا وَإِنْ قَلَّـتْ فِـدَا ... فَهِـي الكَثِيـرَةُ لا تُعَـادِلُ أَوْحَـدَا

وَاسْلَمْ سَلِمْتَ مِن الحَوَادِثِ كُلِّهَا ... وَبقيتَ صَدْرَ المُنْتَدَى بَحْرَ النَّدَى

حَتَّى تُلِيحَ الشَّيبَ أبيَضَ وَاضِحًا ... فَتَجُوزَ غَايَاتِ الحَيَاةِ مَدًى مَدَى

فإذَا انْقَضَى الأَجَلُ المُسَمَّى زُرتُمُ ... فِـي الخُلْـدِ جِـدَّكُمُ الكَـرِيمَ مُحَمَّـدَا

ويدخل في شعر التّهاني كذلك التّهنئة بالفتوحات والانتصارات في الحروب والمعارك، وهي في الشّعر الأندلسي كثيرة ومتنوّعة، ولا سيّما حقبة الدّراسة، يمثّل لذلك ما نظمه الشّاعر مرج الكحل[٢] مخاطبًا أمير المؤمنين النّاصر لدين الله، أبا عبدالله محمد بن يعقوب المنصور الموحّدي[٣]، يهنّئه عند عودته من إفريقيّة عام (٦٠٣هـ)، بعد فتح المهدية، حيث يقول[٤]: **(من الطويل)**

وَلَمَّا تَوَالَى الفَتْحُ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ ... وَلَمْ تَبْلُغ الأَوْهَامُ فِي الوَصْفِ حَدَّهُ

تَرَكْنَـا أَمِيْـرَ المُـؤمِنِينَ لِشُـكْرِهِ ... بمَـا أودَعَ السِّـرُّ الإلهِـيُّ عنـدَهُ

فَـلا نعمَـةٌ إلا تُـؤَدَّى حُقُوقَهَـا ... عَلامَتُـــهُ بالحَمْـــدُ للهِ وَحْـــدَهُ

(١) الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثّامنة، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق/ د. إحسان عبّاس، ط دار الثّقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٧٩: ١٨٠.

(٢) هو محمّد بن إدريس بن علي، أبو عبدالله الأندلسي الشقري، الشّاعر المشهور بمرج الكُحْل، ت(٦٣٤هـ)، يُنظر ترجمته في: الإحاطة ٢٢٨/٢.

(٣) هو محمّد بن يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن بن علي، السّلطان، الملك النّاصر، الملقب بأمير المؤمنين، بُويع بعهد أبيه إليه عند وفاته، وكان قد جعله ولي عهده وله عشر سنين، وكان شجاعًا حليمًا، ت(٦١٠هـ)، يُنظر ترجمته في: المعجب، ص٣٨٦.

(٤) ديوان مرج الكُحل الأندلسي، ت(٦٣٤هـ)، تحقيق/ البشير التهالي، ورشيد كناني، ط١، مكتبة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م، ص٦٧.

وقد اعتاد الشّعراء الأندلسيون على مرافقة الجيوش الإسلامية، فكانوا بما أوتوه من مواهبٍ فنّية بمثابة الآلة التصويرية التي تسجل كلّ ما يدور في ساحات القتال، وتصف للنّاس مجريات الأمور بها؛ لما لذلك من وقع كبير في نفوس الجنود، وتأجيج مشاعرهم، وغالبًا ما كان الشّعراء يقدّمون تهانيهم للخلفاء والحكّام والقادة مشفوعة بالأدلّة والبراهين التي تؤكّد شجاعتهم، وتجعلهم يستحقّون المديح والإطراء، ومن ذلك قصيدة لسان الدّين ابن الخطيب مهنّئًا الخليفة يوسف بن إسماعيل النّصري بالقضاء على طاغية الرّوم "الأدفنش الحادي عشر"، ملك قشتالة، وهو محاصر بجبل الفتح، يوم عاشوراء من عام خمسين وسبعمائة، بدون سلاح، مفتخرًا بحضوره تلك الواقعة العظيمة، وداعيًا إيَّاه إلى استغلالها في فتح ما اغتصبه هذا الطّاغية من أرض المسلمين، إذ يقول[1]: **(من الطويل)**

ألا حَــدِّثُوهَا فَهْــيَ أُمُّ العَجَائِــبِ ... وَمَا حَاضِرٌ فـي وَصْفِهَا مِثْلُ غَائِبِ

هَنِيئًـا بِصُـنْعٍ قَـدْ كَفَـاكَ عَظِيمُـهُ ... رُكُـوبَ المَرَامِـي وَاخْتِيَـارَ المَوَاكِـبِ

وَدُونَكَ فَافْتَحْ كُلَّ مَا أبْهَمَ العِدَى ... وَرُدَّ حُقُوقَ الـدِّينِ مِن كُلِّ غَاصِبِ

وَبَـادِرْ عَـدُوَّ اللهِ عِنْـدَ اضْـطرَابِهِ ... وَعَاجِلْـهُ بِـالبِيضِ الرِّقَـاقِ القَوَاضِـبِ

وَإذَا قِيــلَ أرْضُ اللهِ إرثُ عِبَــادِهِ ... بِمُوجِـبِ تَقْـوَى أنْـتَ أقْـرَبُ عَاصِـبِ

ألَسْتَ إلـى القومِ الـذينَ إذَا انْتَمَوا ... نَمَـتْهُمْ إلَـى الأنْصَـارِ غُـرُّ المَنَاسِبِ

سَــمَاحَةُ إيمَــانٍ وَإشْــرَاقُ أوْجُــهٍ ... وَصِــحَّةُ أحْــلام وَغُــرُّ مَنَاقِــبِ

وعلى هذا النّهج سارت أكثر قصائد الشّعراء في تهنئة حكّامهم بإحراز النّصر، والتّوسّع في الفتوحات، فهي على كثرتها لا تتعدّى كونها تمجيدًا لبطولاتهم، وتأكيدًا على عون الله– تعالى– لهم، ومدحهم بما عُرفوا به من قوّة وشجاعة وإقدام، وأنّ ما حقّقوه من انتصارات يجلب للإسلام العزّة والمنعة، ويساعد على تمكينه في نفوس

(١) ديوان لسان الدّين بن الخطيب ١١٢/١.

العباد، وغالبًا ما يتّكىء الشّعراء في مدائحهم على اتّصال أنساب ممدوحيهم ببعض صحابة رسول اللهﷺ من المهاجرين والأنصار، الذين كانوا يقدّمون أرواحهم فداءً لروحه، ورفع راية دينه، على نحو ما قاله ابن الخطيب في البيت السّادس، ممّا حمل الدّكتور مصطفى الشّكعة إلى القول بأنّ: "هذا اللّون من شعر التّهنئة لا يكاد يفترق عن شعر المدح في شيءٍ كثير، إلا أنّه يدور في فلكٍ محدود يضطر الشّاعر أن يغوص على المعاني المناسبة؛ حتّى يصادفه التّوفيق في أداء ما يريد من إظهار الفرحة بالمناسَبة التي من أجلها قيلت القصيدة"(١).

وبذلك يكون شعر التّهاني على اختلاف موضوعاته، وتعدّد أسبابه من تهنئة بعيدٍ، أو مولود، أو شفاءٍ من مرضٍ، أو إحراز نصرٍ، أو غير ذلك قد عكست طبيعة العلاقات الإنسانيّة بين عناصر المجتمع الأندلسي، إذ كانوا يتشاركون أفراحهم، ويتبادلون مشاعر الحبّ والمودّة فيما بينهم.

٢- شعر التّعازي:

تعدّ التّعازي من أبرز ألوان شعر الإخوانيّات في المجتمع الأندلسي، وهو "ضرب من الشّعر يدور حول المواساة في مصيبة الموت، يشارك به الشّعراء أصدقاءهم من الأدباء والكتاب، أو الوزراء والخلفاء"(٢)، وهذا اللّون من أكثر ما تكلم به الشّعراء، بل النّاس بصفة عامة؛ لأنّه لا يخلو أحد من مصيبة بعزيزٍ أوحميم، فكلٌّ تكلم في أحواله إمَّا مُتعزِّيًا وإمَّا مُعزيًا، وإمَّا مُتصبِّرًا محتسبًا، ومن ذلك قول ابن الأبّار القضاعي معزِّيًا شيخه أبا عبدالله محمّد بن عبدالله بن قاسم الأنصاري، في وفاة والدته(٣): **(من الطويل)**

لَعَـلَّ قَسِـيمَ الفَضْـلِ مِـن آلِ قَاسِـمٍ يُصِـيخُ إليهَـا نُدبَـةً مِـن مُقَاسِـمِ

(١) فنون الشّعر في مجتمع الحمدانيين، د. مصطفى الشكعة، ط مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٨م، ص٢٦٨.
(٢) الإخوانيات في الشعر الأندلسي، ص١٤٨.
(٣) ديوان ابن الأبّار القضاعي، ص٢٩٩.

تَقَيَّـــل فِيهَـــا رَأيُـــهُ غَيـــرَ آثِـــمٍ وَكَـمْ نَـادِبٍ مُسْتَصْـحِبٌ حَـالَ نَـادِمِ
وَأحْسَـنُ مَـا أُعْطِيتَـهُ عِلْـمُ زَاهِـدٍ وَأزْيَـنُ مَـا رُدِّيتَـهُ زُهْـدَ عَـالِمِ
وَطُولُ اعْتِبَارٍ فِي اللّيَالِي وَحُكْمِهَا عَلَـى كُـلِّ مَحْكُـومٍ عَلَيـهِ وَحَـاكِمِ
خَلِيلِـيَّ مَـا هَذِي الأسَـاةُ التـي أرَى وَتِلكَ عُرَى الأعْمَارُ فِي يَدِ قَاصِمِ
أَلَـمْ تَعْلَمَـا أنَّ النُّفُـوسَ فَـرَائِسٌ تُزَجَّـى لآسَـادِ المَنَايَـا الهَـوَاجِمِ
فَـأيْنَ التَّـوَخِّي للسَّـعَادَةِ فِـي غَـدٍ؟! وَأيـنَ التَّـوَقِّي للـدَّوَاهِي الـدَّوَاهِمِ؟!
نَسِيرُ إلـى الأجْدَاثِ رَكْضًـا وَمَـا لَنَـا مِـن الـزَّادِ إلا مُوبِقَـاتِ المَـآثِمِ

تتجلّى الرُّوح الإسلامية واضحة عند الشّاعر، حين يستهلّ قصيدته بدعوة شيخه المُعزَّى إلى فضيلة التّصبّر، مادحًا فيه صفات العلم والزّهد، والتّأمل والاعتبار، ومقرًّا بأنّ النّفوس لا تخرج عن كونها فرائس ضعيفة أمام قوة الموت وفتكه، إلى غير ذلك ممّا يحمله على حسن العزاء، والرّضا بقضاء الله تعالى وقدره.

ثمّ شرع ابن الأبّار في تعزية شيخه، مستخدمًا عبارات المدح والثّناء، فينعته بالبركة، والنّهوض إلى المعالي، والتّضحية بروحه في سبيل نصرة الدّين، وإعلاء كلمة الحقّ في كلّ المشاهد والمواقف، دون أن يتّقي في الله لومة لائمٍ، والإكثار من العبادات والنّوافل، والباع الطّويل في العلم والحلم، وكذلك حسن العزاء في الأرزاء والمصائب، والتّماسك الشّديد أمام حوادث الدّهر ونوائبه، إلا من عبرة تذرفها مقلتاه تعبيرًا عن رحمة قلبه، فيقول(١):

مُبَارَكَـــةٌ جَـــاءَتْ بِنَجْـــلٍ مُبَـــارَكٍ لَـهُ فِـي المَعَـالِي سَـامِيَاتُ المَعَـالِمِ
نَهُـوضٌ بِأعْبَـاءِ الدِّيَانَـةِ مُقْـدِمٌ عَلَـى الحَـقِّ إقْـدَامَ اللُّيُـوثِ الضَّـرَاغِمِ
تَنَسَّـكَ لا يَرجُـو زَمَانًـا مُلائِمًـا وَلا يَتَّقِـي فِـي اللهِ لَومَـةَ لائِـمِ
وَأسْلَمَ دُنْيَـا النَّـاسِ للنَّـاسِ غَانِمًـا مِن الدِّينِ فِي الدَّارَينِ أُنْسَ المَغَارِمِ

(١) ديوان ابن الأبّار القضاعي، ص٣٠٠.

فَلَـيسَ إذَا صَـامَ النَّهَـارَ بِمُفْطِـرٍ وَلَـــيسَ إذا قَـــامَ الظَّـــلامَ بِنَـــائِمِ
لَـهُ بَسْطَةٌ فـي العِلْمِ وَالحِلْمِ زَانَهَا بِقَـبْضِ الخُطَـى إلا بِكَـفِّ المَظَـالِمِ
وَحُسْنُ عَزَاءٍ فـي الأسَـى وَتَمَاسُكٍ سِـوَى عَبْـرَةٍ لَـمْ تَعْـدُ عَـادَةَ رَاحِـمِ

ونقف في ديوان ابن شكيل[1]على قصيدة واحدة نظمها في هذا الغرض الإنساني الرّقيق، معزّيًا صديقًا له يُدعى "أبا عبدالإله"، إثر وفاة ابنة أخ له، يبدأ كلماتها بالحثّ على فضيلة التّصبّر في مواجهة المصائب وإن عظُمت، حتّى يتجاوز محنته، ويلمّلم جراحه، قائلا[2]: **(من الكامل)**

صَـبْرًا أبَـا عَبْـدِ الإلَـهِ عَـن التِـي سَـلَبَتْ جَمِيـلَ الصَّـبْرِ يَـومَ تَوَلَّـتِ
عَـنْ دُرَّةٍ جَلَّـى الضَّـرِيحُ جَمَالَهَـا وَعَقِيلَـــةٍ بِالمُكْرَمَـــاتِ تَحَلَّـــتِ
حَجِبَتْ بِتُرْبِ القَبْرِ عَنْ أبْصَارِنَا لَكِنَّهَـــا بَـــينَ الجَـــوَانِحِ حَلَّـــتِ
بَخِـلَ الغَمَـامُ بِصَـوبِهِ عَـنْ تُرْبِهَـا فَسَـقَيتُهَا العَبَـرَاتِ لَمَّـا انْهَلَّـتِ
عَزَّتْ عَلَـى الكُرَمَـاءِ مِن مَفْقُودَةٍ وَدَهَتْ مُصِيبَتُهَا الجِلالَ فَجَلَّـتِ
لَـوْ تَسْـتَبِينُ الأرْضُ قَـدْرَ جَلالَهَـا بِكُـمُ لألقَـتْ شَخْصَـهَا وَتَخَلَّـتِ
رَيْحَانَـــةٌ ذَبَلَـــتْ وَقَـــرَّتْ أعْـــيُنٌ أَلْقَتْـــكَ أيَّـــامَ السُّـــرُورِ وَقَلَّـــتْ

فهذه الدّرّة الغالية التي تحلّت بالمكارم والأخلاق الرّفيعة وإن سكنت قبرها، وحجبها التّراب عن أبصار أحبّائها، فهي لا تزال باقية منهم في القلوب وبين الجوانح التي حلّت بها ولن تبرحها، ثمّ يصوّر حزنهم الشّديد على فراقها بأنّه لو بخل الغمام

(١) هو أبوالعبّاس، أحمد بن أبي الحكم يعيش بن علي الصّدفي، من أهل شريش بالأندلس، وأحد شعرائها الفحول، مع نزاهة ومروءة سابغة الذيول، له ديوان شعر، ت(٦٠٥هـ)، يُنظر ترجمته في: تحفة القادم، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، المتوفى:(٦٥٨هـ)، تحقيق/ د. إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦م، ص١٤٠.

(٢) أبو العبّاس أحمد بن شكيل الأندلسي، شاعر شريش، تحقيق/ د. حياة قارة، ط١، المجمع الثّقافي- ابو ظبي، ١٩٩٨م، ص٤٣.

يومًا عن سُقيا ترابها، لسقته العيون بغزير دمعها، وفي نهاية القصيدة يكشف الشّاعر عن صلة القرابة التي تجمع بين المُعزَّى والفقيدة، والتي حازت بها على الشّرف الكبير، فانجلت كالشّمس تملأ الوجود بنورها الوضّاح، ولكن لم يمهلها القدر كثيرًا، فسرعان ما قد أُصيبت بالخفاء بعد الظّهور، إشارةً منه إلى حداثة سنّ الفقيدة، داعيًا صديقه لأن يركن إلى واحة الصّبر، الذي هو من شيم الأحرار؛ تطيب نفوسهم به وتتسلّى، فالموت قدرٌ محتومٌ، عمّ حكمه على الخلائق كلّها، وذلّت لعزّته الرّقاب بأثرها، فيقول[١]:

حَازَتْ بِكُمْ شَرَفَ العُمُومَةِ فَانْجَلَتْ شَمسًا دَهَاهَا الكَسْفُ حِينَ تَجَلَّتِ

فَاصْبرْ فإنَّ الحُرَّ مَن إنْ تَدْعُهُ للصَّبْرِ طَابَت نَفسه وَتَسَلَّتِ

فَالمَوتُ أمْرٌ عَمَّ فينَا حُكْمُهُ خَضَعَتْ لِعِزَّتِه الرِّقَابُ وَذَلَّتِ

ويتعلّق بشعر التّعازي لونٌ آخر يعرف بالمواساة، وهي ظاهرة اجتماعيّة سائدة، وشعور إنساني رقيق، يدعو إلى المشاركة الوجدانيّة، والإحساس بالآخر، ومساندته في مواجهة ما يعرض له من الشّدائد والأزمات، ويتجسّد هذا الشّعور جليًّا في شخصية الأديب الأندلسي أبي محمّد، عبدالله الأزدي[٢]، الذي لم يفته أن يواسي ابن الخطيب في فقد والده وأخيه، بل كتب إليه يؤازره في محنته العظيمة، بما يفيد أنّ الموت سنّة كونية لازمة الوقوع، وقدرٌ جارٍ على رؤوس العباد، فيستهلّ قصيدته قائلا[٣]:

(من الكامل)

خَطْبٌ أَلَمَّ فَأَذْهَبَ الأخَ وَالأَبَا رَغْمًا لأنْفٍ شَاءَ ذَلِكَ أَمْ أَبَى

قَدَرٌ جَرَى فِي الخَلْقِ لا يَجِدُ امْرؤٌ عَمَّا بِهِ جَرَت المَقَادِرُ مَهْرَبَا

(١) أبو العبّاس أحمد بن شكيل الأندلسي، شاعر شريش، ص٤٣.
(٢) هو أبو محمّد، عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي، من أهل بلش، يُعرف بابن المرابع، كان من نبهاء أدباء البادية، له قدرة على النّظم والنّثر، ت(٧٥٠هـ)، الإحاطة ٣/٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٨.
(٣) نفح الطّيب ٥/١٢.

وعقب ذلك ينادي لسان الدّين بن الخطيب؛ ليخبره أنّه معه بقلبه وروحه، يقف بجواره في مصابه، ويقاسمه آلامه وأحزانه، كما يقدّر له موهبته الأدبيّة العالية، التي تجعله من السّابقين في حلبة الأدب، فيقول(١):

يَا ابنَ الخَطِيْبِ خِطَابُ مُكْتَرِث لِمَا ... قَـدْ ألـزَمَ البَـثُّ الألَـدَّ وَأَوْجَبَـا(٢)

قَاسَـمْتُكَ الشَّـجْوَ المُقَاسَـمْة التـي ... صَارَتْ بِخَالِصِ مَا مَحَضتُكَ مَذْهَبَا(٣)

لِـمَ لا وَأنـتَ لَـدَيَّ سَـابِقُ حِلبَـةً ... تَزْهَـى بِمَـنْ فـي السَّـابِقِيْنَ تَأَدُّبَـا

ثمّ يختم قصيدته ببيان منزلة الشّهداء، وما أعدّه الله تعالى لهم في الآخرة من الفوز العظيم بجنّات النّعيم وحورها، راجيًا من لسان الدين أن يستغنى بالله عن هذين الحبيبين، ومن سواهما، فيقول(٤):

يَهْنَـى الشَّـهِيْدَيْن الشَّـهَادَةَ إنَّهَـا ... سَـبَبٌ يَزِيْـدُ مـن الإلـهِ تَقَرُّبَـا

وَرَدَا عَلَـى دَارِ النَّعِـيْمِ وَحُوْرِهَـا ... كَلَفًـا بِبِرِّهِمَـا يَـزِدْنَ تَرَحُّبَـا

فَاسْتَغْنَ بِالرَّحْمَن عَمَّنْ قَدْ ثَوَى ... مِنْ حِزْبِ خَيْرِ مَن ارْتَضَى وَمَن احْتَبَى

وقد كان لهذه المبادرة الاجتماعية الصّادقة، والشّعور الإنساني الرّقيق أثرهما الإيجابي على نفس لسان الدّين بن الخطيب؛ لذا نجده يسارع بمجاوبة الأزدي، والتّرحيب بقدومه، قائلا(٥): **(من الكامل)**

أهْـلا بِمَقْـدَمِكَ السَّـنِيِّ وَمَرْحَبَـا ... فَلَقَـدْ حَبَـانِي اللهُ مِنْـكَ بِمَـا حَبَـا

---

(١) نفح الطّيب ١٣/٥.
(٢) مكترث: كرثه الأمر يكرثه كرثًا، أي ساءه، واشتدّ عليه، وبلغ منه المشقّة، والبثّ: شدّة الحزن، أو المرض الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثّه، والألدّ: شديد الخصومة والجدل، لسان العرب، مادّة (كرث)، ٣٨٤٨/٥، ومادّة (بثث)، ٢٠٨/١، ومادّة (لدد)، ٤٠٢٠/٥، بتصرّف.
(٣) المحض: المحض من كلّ شيء الخالص الذي لا يشوبه ما يخالطه، ومحض فلانًا لغيره الودّ أو النّصح: أي أخلصه إياه، لسان العرب، مادّة (محض)، ٤١٤٦/٦، بتصرّف.
(٤) نفح الطّيب ١٣/٥.
(٥) ديوان لسان الدّين بن الخطيب ١٠٧/١.

وَافَيْـــتَ وَالـــدُّنْيَا عَلَـــيَّ كَأَنَّهَـــا سَمُّ الخِيَـاطِ وَطَـرْفُ صَـبْرِيَ قَـدْ كَبَـا[١]

وَالدَّهْرُ قَدْ كَشَفَ القِنَـاعَ فَلَـمْ يَدَعْ لِـــي عُـــدَّةً لِلـــرَّوْعِ إلا أَذْهَبَـــا

فَأَنَرْتَ من ظَلْمَاء نَفْسِيَ مَا دَجَا وَقَدَحْتَ من زَنْدِ اصْطِبَارِي مَا خَبَا[٢]

فَكَـأَنَّنِي لَعِـبَ الهَجِيْـرُ بِمُهْجَتِـي فِـي مَهْمَـهٍ وَبَعَثْـتَ لِـي نَفَسَ الصَّـبَا

ينظر الشّاعر إلى مواساة الأزدي له باعتبارها نعمة عظيمة قد ساقها الله تعالى إليه، فأنارت نفسه بعدما أظلمها الحزن على فقيديه الغاليين، وأشعلت نار صبره بعدما سكنت وأخمدها الحنين إليهما، ويوضّح أثر تلك المشاركة الوجدانية عليه، فيتخيّل أنّه كان واقفًا في وسط نهار الصّيف، تلسعه حرارة الشّمس السّاطعة، فبعث إليه الأزدي بريح الصّبا المعروفة عند العرب بطيب نسيمها، واعتدال هوائها، وقد لعب الطّباق اللّفظي والتّأويلي بين معاني "النّور والظلام، والإشعال والإطفاء، والهجير والصّبا" دورًا بارزًا في توضيح المعنى وتأكيده في ذهن السّامع.

٣- شعر العتاب والاعتذار:

العتاب والتّعتّب والمعاتبة: كلّ ذلك يُعني مخاطبة الإدلال، وكلام المُدِلّين أخلاءهم طالبين حسن مراجعتهم، ومذاكرة بعضهم بعضًا ما كرهوه ممّا أكسبهم المَوْجِدة، والاستعتاب: هو الرّجوع عن الإساءة، وطلب الرّضا، ومنه في الحديث: "مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ، وَمَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إلا الْجَنَّةَ أَوِ النَّارَ"[٣]، أي ليس بعد الموت من استرضاء؛ لأنّ الأعمال بطلت وانقضى زمانها، وما بعد الموت دار جزاء لا عمل[٤].

(١) سمّ الخياط: أي ثقب الإبرة، كناية عن ضيقه، وكبا: كبا الشيء أي سقط على وجهه، وفقد توازنه في سيره، لسان العرب، مادّة (خيط)، ١٣٠٢/٢، ومادّة (كبب)، ٣٨٠٣/٥، بتصرّف

(٢) الزّند: العود الأعلى الذي يُقتدح به النّار، لسان العرب، مادّة (زند)، ١٨٧١/٣.

(٣) ذُكر الحديث في تفسير القرطبي، لشمس الدّين القرطبي، ت(٦٧١هـ)، تحقيق/أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ= ١٩٦٤م، ١١٦/١٨، والحديث مرفوع، والمعنى اللّغوي في: لسان العرب، مادّة (عتب)، ٢٧٩٢/٤، ٢٧٩٣.

(٤) لسان العرب، مادّة (عتب)، ٢٧٩٢/٤، ٢٧٩٣.

ولم تخلُ المراسلات والمخاطبات التي كان يتبادلها الشّعراء الأندلسيون من ذلك المعنى الجميل، والشّعور الوجداني، الذي ينقّي النّفوس، ويوطّد العلاقات، ومنه الرّسالة العتابية القصيرة، التي أرسلها ابن جبير إلى صديقه أبي الحكم بن هردوس(١)، يقول فيها(٢): **(من المتقارب)**

أبَـا حَكَـمٍ أيـنَ عَهْـدُ الوفَـاءِ؟ فَقِـدَمًا عَهِـدْتُكَ تُعْـزَى إلَيـهِ

وَمَا العُذْرُ فِي أنْ أتَاكَ الرَّسُولُ؟ فَأَصْـدَرْتَهُ ضَـارِبًا صـدرَتَيهِ(٣)

يبدو من هذين البيتين على قلّة العبارات فيهما قوّة العلاقة بين الشّاعر وصديقه، ومدى ما يكنّه كلَّ منهما للآخر من مشاعر المحبّة والمودّة، ولكن حالت الظّروف دون اللّقاء بينهما، فبلغ الحنين في قلب ابن جبير مبلغه، فما لبث أن أرسل إلى صديقه رسولا، يدعوه إلى الزّيارة، أو ما شابهها من دواعي الألفة بين النّاس، فعاد إليه فارغ اليد، معدوم الإجابة؛ ممّا دعا الشّاعر إلى معاتبتة عتابًا رقيقًا، وتذكيره بعهد الوفاء بينهما، وما أجمل قوله مستفهمًا: "وما العذر؟" ممّا يكشف عن ثقة الشّاعر بابن هردوس، فهو لم يسأله عمّا إذا كان لديه عذر في ذلك أم لا؟ وكأنّه متيقّنًا من وجود المانع، ولم يبقى سوى معرفة طبيعته.

وله في معاتبة صديقه الشّاعر الزّاهد أبو عمران الميرتلي(٤)، بيتين يشكو فيهما من القطيعة التي طرأت على صداقتهما من بعد القرب والوصال، فيقول مصرّحًا باسمه، ومعتزًّا بصفاته(٥): **(من الوافر)**

---

(١) هو أبو الحكم بن إبراهيم بن علي بن هردوس الأنصاري، الكاتب، من أهل حصن مرشانة، عمل المرية، سكن مالقة، ت(٥٧٢هـ)، إثر مرضه بالطّاعون، ودُفن بمراكش، يُنظر في ترجمته: تحفة القادم، ص٧٢.
(٢) أعلام مالقة، أبو عبدالله بن عسكر، وأبو بكر بن خميس، تقديم/ د. عبدالله المرابط التّرغي، ط١، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ودار الأمان- الرّباط، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م، ص١٤٢.
(٣) جاء يضرب أصدريه: إذا جاء فارغًا، يُعني عطفيه، لسان العرب، مادّة (صدر)، ٢٤١٣/٤.
(٤) هو موسى بن حسين بن موسى بن عمران بن أبي عمران القيسي الزّاهد، يكنى أبا عمران، أصله من ميرتلة، المعقل المشهور على وادي "آنة"، من أعمال "باجة"، من الأندلس، كان لا يُعدلُ به أحدٌ من أهل عصره صلاحًا وعبادةً، مع تصرفه في فنون الأدب، ت(٦٠٤هـ)، تحفة القادم، ص١٣٢، وسير أعلام النّبلاء ٤٧٨/٢١.
(٥) ديوان الرّحالة ابن جبير الأندلسي وما وصل إلينا من شعره، ص١١٥.

أبَـا عِمْـرَانَ قَـدْ خَلَّفْـتَ قَلْبِـي لَــديكَ وَأنــتَ أهــلٌ للوَدِيعَــهْ
صَحِبْتُ بِكَ الزَّمَانَ أخَا وَفَاءٍ فَهَا هُوَ قَد تَنَمرَّ للقَطِيعـهْ[1]

يتجلّى من خلال هذين النّموذجين الأسلوب اللّين الرّقيق الذي يتّبعه ابن جبير في عتاب أصدقائه، ولعلّ السّبب في ذلك يرجع إلى إحساسه المرهف، وتقديره لما يربط بين النّاس من علاقات إنسانيّة صادقة، ممّا جعله يتأذّى من تصرّفات أصدقائه تجاهه، فلا يزال يعاتبهم إشفاقًا عليهم، ونصيحةً لهم، وكأنّه يردّد بين نفسه العبارة الشّهيرة التي تقول: "ويبقى الودّ ما بقي العتاب".

ومن أجمل ما قيل في شعر العتاب، قصيدة لعبدالكريم القيسي، يُخاطب بها صديقه ابن عبدالمليك، الذي يُرجّح أن يكون هو نفسه أبو عبدالله محمّد بن عبدالملك الأُليري، أحد قُضاة غرناطة، الشّهير بابن مليح[2]، والذي أبدى للشّاعر جفاءً شديدًا وبُعدًا يثقُل على القلب تحمّلهما، فأرسل له قصيدة شعرية يعاتبه فيها على بخله حتّى بالكتابة إليه، قائلا[3]: **(من الخفيف)**

يَا ابن عَبدَ المَلِيكِ يَا خَيرَ خِلٍّ ذِكْـرُهُ مُنْـذُ غَـابَ عَنِّـي شُـغْلِي
لَــكَ مَــعَ اعْتِقَــادِي وَحُبِّــي وَصَــــفَاءٍ بَذَلْتُـــهُ أيَّ بَـــذْلِ
فَلِمَــاذَا يَــا سَــيِّدِي وَعِمَــادِي لَيتَ شِعْرِي قَابَلْتَ بِالعَكْسِ فِعْلِي
فَأَبَحْـتَ الحَـرَامَ لا شَـكَّ هَجْـرِي وَمَنَعْـتَ الحَـلالَ لا شَـكَّ وَصْـلِي
وَرَأَيْــتَ البِعَــادَ عَنِّــي رَأيًــا مَــا رَآهُ سِــوَاكَ رَأيًــا لِمِثْلِــي
وَبَخِلْــتَ الغَــدَاةَ حَتَّــى بِكَتْــبٍ وَأُحَاشِــيكَ عَــن تَحــلٍّ بِبُخْــلِ

(١) تنمّر: يقال تنمّر فلان لغيره: إذا تنكّر له وأوعده، والقطيعة: الصّدود والهجران، وهي فعيلة من القطع، وثُلق ويراد منها ترك البرّ والإحسان إلى الأهل، لسان العرب، مادّة (نمر)، ٤٥٤٦/٦، ومادّة (قطع)، ٣٦٧٦/٥.
(٢) يُنظر: البسطي آخر شعراء الأندلس، ص١١٤.
(٣) ديوان عبدالكريم القيسي، ص٢٦٥.

مَـا كَـذَا يَفْعَـلُ الأَخِـلاءُ أَصْـلا يَـا أَصِـيلا زَكَـا لَـهُ طِيـبَ أَصْـلِ

عُدْ لِرَعْـي الـوِدَادَ وَاشْـدُدْ بِكَتْـبٍ حَبْـلَ رَعْـي الـوِدَادِ مِنْـكَ بِحَبْلـي

نظم الشّاعر عقد كلماته في تلك القصيدة من المصطلحات الفقهية، واضعًا الهجر بين الأصدقاء في قائمة المحرّمات، بينما القرب والوصل بينهم يمثّل عين الحلال، وبذلك يكون خليله مأثومٌ؛ لكونه قد أباح لنفسه ارتكاب الحرام، وامتنع في المقابل عن تأدية الحلال ولو في أقلّ مراتبه، ألا وهي التّراسل بالمكاتبة، نافيًا أن يكون هذا من أفعال الأخلاء، ومن ثمّ يحثّه على مراعاة الوداد بينهما، ليعودا على ما كانا عليه في سابق عهدهما.

ويتعلّق بموضوع العتاب مجاوبته، والرّدّ على ما جاء فيه، يتجلّى ذلك بوضوح في قول ابن خطّاب الجيّاني[1] من قصيدة يردّ بها على عتاب صديقه محمّد بن همشُك لإغبابه عنه في شكاية ألمّت به[2]: **(من المتقارب)**

حَفِظْـتُ العُهُـودَ وَلَـمْ أَنْسَـهَا فَـإِنَّ لَهَـا عِنْـدَ مِثْلِـي وُجُوبَـا

وَلَـمْ أَكُ أَدْرِ الـذي قَـد عَـرَا كَ فَمَا أَحَدٌ بَاتَ يَدْرِي الغُيُوْبَا

فَـإِنِّيَ فـي شُـغُلٍ شَـاغِلٍ تَكَـادُ القُلُـوبُ لَـهُ أَنْ تَـذَوْبَا

فَإِنَّ الـذي بِاحتِسَابِ الطَّعَامِ يُـرِي مُبْتَلًـى حَقُّـهُ أَنْ يَشِـيبَا

وَمَـا زَالَ بِـرُّكَ مَهْمَـا أَتَـى أَرَاهُ بِعَتْـبٍ وَلَـومٍ مَشُـوبَا

فَـلا تَعْتَـبَنَّ أَخًـا إِنْ هَفَـا رَجَـاءً بِمَـا وُدُّهُ لَـنْ يَخِيبَـا

فَلَـيسَ العِتَـابُ لِـذِي خُلَّـةٍ إِذَا لَـجَّ فِيـهِ بِمُبْـقٍ حَبِيبَـا

(١) هو أبو عبدالله، محمّد بن خطّاب الجيّاني، من حفّاظ الموحّدين الجِلّة، الذين حُمّلوا في الأمانة كلّ مهمّ فحملوه كلّه، كان منزله في موطنه جيان منتدًى للطّلبة والأعيان، لم تذكر المصادر تاريخ وفاته، يُنظر ترجمته في: اختصار القدح المعلّى، ص٢٢: ٢٧.

(٢) اختصار القدح المعلّى، ص٢٦، ٢٧.

وَانْـتَ الـوَلِيُّ وَأَنْـتَ الصَّـفِيُّ فَـلا تَـكُ فـي خُلَّتِـي مُسْـتَرِيبَا

وُقِيـتَ الـذِي تَشْـتَكِي ضُـرَّهُ وَحَـطَّ بِـهِ اللهُ عَنْـكَ الـذُّنُوبَا

فالشّاعر يؤكّد منذ بداية القصيدة على مراعاته حقوق الصّداقة، وعدم نسيانه لها، ثمّ يمضي مدافعًا عن نفسه أمام عتاب صديقه، فلم يكن لديه علمٌ بما قد أصابه، معتمدًا في ذلك على دليلٌ قاطع، وهو أنّه لا أحد منّا يطّلع على الغيب، كما أنّه في ذلك الوقت كان مشغولا باحتساب الطّعام، والسّعي وراء الرّزق، وهذا بلا شكٍّ أمرٌ عظيمٌ تشيب له الرُّؤوس، وتذوب لأجله القلوب، وبعد ذلك يلومه على شدّة معاتبته رغم ما يكنّه له في قلبه من مشاعر الحبّ والوداد، وصيانته لما بينهما من عهود الوفاء والإخلاص، مسديًا إليه نصيحة غالية في ذلك الشّأن، وهي الإقلاع عن كثرة العتاب، والمبالغة في توجيهه إلى الأحباب والخلان؛ ممّا قد يُفسد بدوره العلاقات، فيُصبح في الدّنيا وحيدا، بلا أنيسٍ ولا جليس، ويطلب منه ألا يرتاب يومًا في ما يحمله القلب إليه من ولاءٍ وصفاء، وفي ختام القصيدة يدعو له بالوقاية ممّا يشتكي ضرّه كائنٌ ما كان، ويرجوا من الله- تعالى- أن يجعله سببًا في حطّ الذّنوب، ورفع الدّرجات.

وربّما قابل الشّعراء عتاب أصدقائهم بالاعتذار، وطلب العفو والسّماح على التّقصير في حقّهم، ومن ذلك قول ابن زمرك[1]: **(من البسيط)**

قَابِـلْ بِصَـفْحِكَ وَاقْبَـلْ عُـذْرَ مُعْتَـرِفٍ بِالـذَّنْبِ يَطْلُـبُ فَضْـلا مِنْـكَ تُولِيـهِ

زِيَـادَةُ الفَضْـلِ خُلْـقٌ مِنْـكَ نَعْرِفُهَـا وَتِلْـكَ فِـي اسْـمِكَ مَعْنًـى مِـن مَعَانِيـهِ

وَاللهِ وَاللهِ مَـا فَرَّطْـتُ عَـنْ سَـعَةٍ إلا لِعُـذْرٍ خَفَـيٍّ لَسْـتَ تَدْرِيـهِ

هَـذَا وَبِـي نَـدَمٌ جَـازَتْ عُقُوبَتُـهُ حَـدَّ الـذِي كُنْـتَ لَـوْ عَاقَبْـتَ تُبْدِيـهِ

أَبَعْـدَ عِشْـرِينَ حَـولا فِـي مُكَارَمَـةٍ أُبْـدِي جَفَـاءً وَأَقْصَـى البِـرِّ أُخْفِيـهِ؟!

(١) ديوان ابن زمرك، ص٣٥٤.

استهلّ الشّاعر قصيده بالاعتراف بالذّنب في حقّ المخاطَب، وطلب الصّفح الذي هو أهله، وفي شمائله، ويؤكّد له عن طريق القسم في قوله: "والله والله" أنّه لم يُفرّط عن قصدٍ منه وسعة، وإنّما لعذرٍ خفيٍّ لا يعلمه كثير من النّاس، وتكرار القسم هنا زيادةً في التّأكيد، وإلحاحًا في الطّلب، معلنًا شديد ندمه على ما ارتكب، فهو ذنبٌ عظيم يتجاوز في عقوبته التّصوّر والتّفكير، وفي ذلك دليل على أنّ الشّاعر قد راعه العتاب، وعرف ما للصّداقة من شأنٍ عظيمٍ في الحياة.

وفي قصيدة أخرى يزيد ابن زمرك من قدر معاتِبه، ويُعظِم له شأنه، فيجعل توجيه العتاب إليه تواضعًا، وفي الاهتمام بوصله تشريفًا، وفي الحرص على مخاطبته رفعةً لا يُستهان بها، فيقول(1): **(من الطويل)**

وَإِنِّــي وَإِنْ أَغْفَلْــتُ ذِكْــرِكَ بُرْهَــةً	**يَقُومُ الهَوَى العُذْرِيُّ فِيهَا عَنِ العُذْرِ**
خَيَالُكَ في عَينِي وَذِكْرُكَ في فَمِي	**وَنُعْمَاكَ في كَفِّي وَشَخْصُكَ في فِكْرِي**
وَمَا كُنْتُ ممَّنْ رَامَ بَابَكَ سَاعَةً	**وَلَكِنَّ لِي عُذْرًا يَضِيقُ بِهِ صَدْرِي**
وَمَـا نَطَقَـتْ عَليَـاكَ إلا تَوَاضُـعًا	**تُشَـرِّفُ مِـنْ ذِكْـرِي وَتَرْفَـعُ مِـنْ قَـدْرِي**

ممّا يُلحَظُ في هذه الأبيات الاعتذارية أن الشّاعر قد اتّكأ في وصف مشاعره تجاه مخاطبه على لغةٍ تتشابه كثيرًا مع لغة الغزل، فالهوى العذري، ومثول الحبيب في عيني محبّه، والتعلل بطيف خياله، وتكرار اسمه في فكره وعلى لسانه، وغيرها من الألفاظ والمعاني غالبًا ما تتردّد في قصائد الشّعر الغزلي، وذلك أسلوبٌ دارج، نهجه معظم شعراء العتاب وجوابه، ولا سيّما في العصور الأندلسيّة المتأخرّة.

(1) ديوان ابن زمرك، ص٢٢٢.

٤- الهدية والاستهداء:

جاء في لسان العرب الهدية: ما أتحفت به، ويراد بها إعطاء شيء بغير عوض صلةً وتقرّبًا وإكرامًا، والتّهادي أن يهدي بعضهم إلى بعض(١).

وممّا لا شكّ فيه أنّ الهدية تترك أثرًا جميلا في نفس المُهدَى إليه، وتعزّز من قيمة التّواصل الاجتماعي بين النّاس؛ لكونها: "تجلب المودّة، وتزرع المحبّة، وتنفي الضّغينة، وتركها يورث الوحشة، ويدعو إلى القطيعة، والهدية تصير البعيد قريبًا، والعدو صديقًا، والبغيض وليًّا، والثّقيل خفيفًا، والعبد حرًّا، والحرّ عبدًا"(٢)، ولولا شرف الهدية ومكانتها في الإسلام لما حُلّلت للنّبيﷺ من دون الصّدقة، ولما حثّ على تبادلها بين العباد، حيث قال: "تَهَادُوا تَحَابُّوا"(٣).

وقد شاعت عادة تقديم الهدايا في المجتمع الأندلسي بمختلف عصوره، فأكثر الشعراء من القول فيها، وتنوّعت قصائدهم بتنوّع المناسبات التي نُظمَت لأجلها، وكثيرًا ما كانوا يمزجون بين وصفهم للهدية ومُهديها، أو المُهْداة إليه، وخير من يُمثَّل به في ذلك اللّون من شعر الإخوانيّات، ابن زمرك الغرناطي، الذي جمعته علاقة وطيدة بالسّلطان الغني بالله النّصري، فحاز على كبير اهتمامه، ونال العديد من هداياه، مقابلا ذلك بالمديح والشّكر، على نحو قوله(٤): **(من الطويل)**

أيَا خَيرَ مَن يُهْدي العَبِيدَ نَعَائِمًا تَحُومُ عَلَيهَا الشُّهْبُ حَتَّى النَّعَائِمُ

نُسِبْتَ إلى مَاءِ السَّمَاءِ وِرَاثَةً فَعَبْدُكَ في بَحْرٍ مِن الجُودِ عَائِمُ

(١) لسان العرب، مادّة (هدي)، ٤٦٣٨/٦، بتصرّف.
(٢) المحاسن والأضداد، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري، ت(٢٥٥هـ)، ط٢، مكتبة الخانجي، مصر، ١٤١٥هـ= ١٩٩٤م، ص٢٣٨.
(٣) صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، محمّد بن إسماعيل البخاري، ت(٢٥٦هـ)، تحقيق/ محمّد ناصر الدّين الألباني، ط٤، دار الصّديق للنّشر والتّوزيع، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م، الحديث رقم (٥٩٤)، باب قبول الهدية، ص٢٢١، والحديث حسن.
(٤) ديوان ابن زمرك، ص٧٩.

بَعَثْتَ بِوَرْدٍ بَينَ زَهْرٍ كَأَنَّمَا ... تَفَتَّحَ عَنهُ فِي الرِّيَاضِ الكَمَائِمُ

وَمَا هُوَ إلا اللَّحْمُ وَالشَّحْمُ صَاغَهُ ... رَبِيعٌ سَقَتْهُ فِي البِطَاحِ الغَمَائِمُ

تَبَارَكَ مَن وَلاكَ أمرَ عِبَادِهِ ... لِتَشْمَلَهُمْ مِنكَ اللُّهَى وَالمَكَارِمُ

وَوَجْهُكَ زَادَ اللهُ وَجْهَكَ نَضْرَةً ... تُغِيرُ بِهِ تَاجَ البُدُورِ العَمَائِمُ

فَلَوْ رَامَ وَجْهُ الصُّبْحِ شِبهَ جَمَالِهِ ... حَكَمْنَا بِأَنَّ الصُّبْحَ فِي الأُفْقِ نَائِمُ

فالشّاعر يستهلّ قصيدته ويختمها بمدح السّلطان، واصفًا إيّاه بالفضل الكبير، والمنزلة العالية، فما زال يُغدِق على الرّعية هداياه حتّى كادوا يسبحون في بحر جوده، متطرّقًا إلى شيءٍ من جماله الحسّي، فوجهه نضر بهيج، تغار منه بدور السّماء، ويخفت أمام ضيائه نور الصّباح، لدرجة أنّه لو قصد يومًا أن يتشبّه بجمال السّلطان لنام خوفًا، وتوارى خجلا؛ لعدم مجاراته ذلك الجمال الفتّان، على سبيل المبالغة، شاكرًا الله- تعالى- على توليته لأمور المسلمين، والوقوف على جميع شؤونهم.

أمّا عن وصف الهدية، فهي باقةٍ من ورود الرّبيع التي سُقيَت بماء المطر، حتّى زهى لونها، وفاح العطر من بينها، ويؤخذ على الشّاعر هنا خضوعه ووصف نفسه في البيتين الأوّل والثّاني بالعبودية والذّل أمام تلك الهدية المادّية الفانية وصاحبها.

وإذا كان مديح الشّاعر للخليفة قد غلب وصف الهدية في القصيدة السّابقة، فهناك من القصائد ما ركّز فيها الشّاعر على الهدية، حتّى فاق وصفها مديح صاحبها، كقوله[1]: **(من الكامل)**

يَا بَدْرَ تِمٍّ فِي سَمَاءِ خِلافَةٍ ... يُهْدِي الضِّياءَ إلى النُّجُومِ فَتَهْتَدِي

(١) ديوان ابن زمرك، ص٢٤٢.

أَهْـدَيتَنِي مَشْـمُوْلَةً بِمَحَاسِـنٍ كَالشَّـمْسِ عِنـدَ طُلُوعِهَـا بِالأَسْـعُدِ
مَوشِـيَّةَ الأَعْطَـافِ رَائِقَـةَ الحُلَـى فَاقَـتْ مَحَاسِـنُهَا التـي لَـمْ تُعْهَـدِ
شَمْسٌ يَـرُوقُ النَّـاظِرِينَ جَمَالُهَـا كَـمْ زَانَهَـا مِـن حَلْيهَـا مِـن فَرْقَـدِ[1]
للهِ مِنْهَـــا قُبَّـــةٌ مَرْفُوعَـــةٌ قَـــد مُوِّهَـــتْ أَرْجَاؤهَـــا بِالعَسْـــجَدِ
أَبْوَابُهَـا قَـدْ فُتِّحَـتْ مِـنْ حَولِهَـا لِوُفُـودِ سَـعْدٍ بِالبَشَـائِرِ مُسْـعِدِ
مِثْـلَ القَسِـيِّ تَوَشَّـحَتْ وَتَرَفَّعَـتْ أَوْ كَالمَحَـارِبِ صُـفِّفَتْ لِتَهَجُّـدِ
وَلَكَـمْ كَوَاكِـبُ فَوقَهَـا مِـن فِضَّـةٍ تُزْهَـى بِـدُرٍّ لِلجَمَـالِ مُنَضَّـدِ
صَمَتَتْ وَقَدْ نَطَقَتْ لَنَا أَشْعَارُهَا بِبِشَـائِرٍ تَقْضِـي بِنَيـلِ المَقْصَـدِ
وَمِدَادُهَا المِسكُ الفَتِيقُ لِنَاشِقٍ يُهْـدِي الثَّنَـاءَ إِلـى الإِمَـامِ مُحمَّـدِ

يصف الشّاعر هدية أسداها إليه السّلطان ذاته، كانت عبارة عن دواةٍ ومقلمة، فيصفه في البيت الأوّل من القصيدة ببدر التّمّ، بينما كافّة الخلفاء غيره نجوم تهتدي به، وتستمدّ الضّوء والإشراق من عظيم نوره، وكأنّ الخلافة والحكم سماءً عاليةً مليئة بالكواكب اللامعة، على سبيل الاستعارة المكنية، ثمّ ينتقل سريعًا للحديث عن المقلمة، فيصفها بالرّونق والجمال، ويشبّهها في نصاعتها وارتفاعها بشمس الضّحى، وهي كذلك مزدانة الأعطاف بما يشبه النّجوم العوالي، ذات اللّون الذّهبي الأصيل، وقد فُتِّحَت أبوابها لاستقبال الأقلام الوافدة نحوها، تلك الأقلام التي تبدو أمامنا صامته، ولكنّها تنطق بأفصح وأبلغ الأشعار، كما وصف المداد في تلك الدّواة التي أُهديت إليه، مشبّها إيّاها بالمسك، بجامع الذّيوع والانتشار، وارتقاء القيمة في كلا الطّرفين.

(١) تأثّر الشّاعر في مدحه للخليفة هنا تأثّرًا واضحًا بالنّابغة الذّبياني في قوله: (من الطويل)
فإنّك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طَلَعَتْ لمْ يبدُ منهنّ كَوكَبُ
يُنظر: ديوان النّابغة الذّبياني، شرح وتقديم/ حمدو طمّاس، ط٢، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت – لبنان، ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م، ص٢٠.

وعلى الصّعيد الآخر يتقدّم ابن زمرك إلى سلطانه الغني بالله النّصري بمجموعة من الزّهور على سبيل الهدية، معبّرًا من خلالها عن شوقه الكبير إليه، ورغبته في تقبيل يديه، علّها تؤدّي ذلك عنه، مشبّهًا نفسه حال البعد بالظّمآن يشتاق دائمًا إلى ماء البحر، يقول[1]: **(من الطويل)**

أمَولايَ تَقْبِيلِي لِيُمْنَاكَ شَاقَنِي ... وَلا يُنْكِرُ الظَّمْآنُ شَوقًا إلى البَحْرِ

وَلَمَّا رَأيتُ الدَّهْرَ مَاطَلَنِي بِهَا ... وَشَوَّقَنِي مِن حَيثُ أدْرِي وَلا أدْرِي[2]

بَعَثْتُ لَكَ الزَّهْرَ الجَنِيَّ لَعَلَّهَا ... يُقَبِّلُهَا عَنِّي ثُغُورٌ مِن الزَّهْرِ

وممّا يتّصل بالهدية شكرها، والشّكر عرفان الإحسان ونشره، وهو لا يكون إلا عن يدٍ، تفريقًا له عن الحمد الذي يكون عن يدٍ وعن غير يدٍ، فالحمد أعمّ منه وأشمل، وفي ديوان ابن زمرك نماذج كثيرة له، كقوله[3]: **(من الكامل)**

يَا مُلْبِسِي حُلَلَ الرِّضَا أَلبَسْتَنِي ... أثْوَابَ عِزٍّ تَبْلُغُ التَّأمِيلا

وَكَسَوتَنِي مِن كُلِّ حِلي فَاخِرٍ ... أضْحَى بِتَشْرِيفِي لَدَيكَ كَفِيلا

طَاوَلتُ أوجَ النَّيِّرَاتِ بِفَخْرِهَا ... وَسَحَبْتُ مِن فَوقِ النُّجُومِ ذُيُولا

وَاللهِ مَا أدْرِي بِأيَّةِ مَدْحَةٍ ... أسْتَغْرِقُ الإجْمَالَ وَالتَّفْصِيلا

وَلَو أنَّ بَدْرَ الأُفْقِ أمْلِكُ أمْرَهُ ... لَنَظَمْتُ مِنْهُ التَّاجَ وَالإكْلِيلا

وَلَصُغْتُ مِنْ دُرِّ الدَّرَارِي حِلْيَةً ... وَأتَيتُ بِالزُّهْرِ النُّجُومِ قَبِيلا

---

(١) ديوان ابن زمرك، ص٢٤١.

(٢) في هذا البيت تأثّر واضح بالشّاعر علي بن الجهم، إذ يقول: (من الطويل)

عُيونُ المَهَا بينَ الرّصافَة وَالجِسر ... جَلَبنَ الهَوَى من حَيثُ أدْري وَلا أدْري

يُنظر: ديوان علي بن الجهم، تحقيق/ خليل مردم بك، ط٥، وزارة المعارف- المملكة العربية السّعودية، د.ت، ص١٤١، ٢٢٠، ٢٥٢.

(٣) ديوان ابن زمرك، ص٢٦٥، ٢٦٦.

وَبَلَغْتُ مِـن شُـكْرِي لِبِـرِّكَ غَايَـةً وَنَهَجْـتُ للشُّـكْرِ الجَزِيـلِ سَـبِيلا

فهو يشكر السّلطان على هدية جميلة كان قد أسداها إليه، عبارة عن خلعة من أجود أنواع الثّياب وأروعه، الأمر الذي جعله يشعر بالسّعادة والفخر، حتّى وكأنّه يطاول النّجوم اللامعة في أوج السّماء، ثمّ يقف متحيّرًا أمام صفات الممدوح، لا يدري بأيّها يتستغرق الحديث إجمالا وتفصيلا، متمنّيًا لو أنّه يمتلك أمر الأفلاك العالية، فينظم له من نور البدور تاجًا وإكليلا، ويصوغ من درّ الدّراري حلية، ويأتي له بالنجوم الزُّهر المتلألئة قبيلا؛ علّه يبلغ بذلك جزيل شكره وتقديره على ما منحه من هبات وعطايا، يعجز عن الوفاء بحقّها، وقصائد الشّاعر في هذا الغرض من الشّعر كثيرة ومتنوّعة(١).

وربما قوبلت الهدايا المادّيّة كالتي وردت في النّماذج السّابق، بهدايا معنويّة كالشّعر ونحوه، يجسّد هذا المنحى ما دار بين الشّاعر الرّحّالة ابن جبير وصهره الأديب الكاتب أبي جعفر الوقشي(٢)، حين أرسل إليه بهدية عبارة عن خلٍّ كريمٍ، يأنس بصحبته، ويُخَفِّف له شيئًا من غربته أثناء تجواله في صحراء البلاد، وقد كتب له مع الهدية أبياتًا شعريّة لطيفة، يخبره فيها عن هديّته، ويدعو له أن يلقى من السّعد فوق ما يُريده، يقول(٣): **(من المتقارب)**

بَعَثْـتُ إلَيـكَ بِخِـلٍّ كَـرِيمٍ يَمُـــدُّ إلَيـــكَ ذِرَاعَ النَّجَـــادْ

فَوَشِّحْ بِـهِ مِعْطَفَيـكَ إذَا مَـا دُفِعْتَ إلـى جَـوبِ بِيـدِ الـبِلادْ

وَسِرْ نَافِذًا حَافِذًا مَضْرِبَيْهِ مُلَقًّى مِن السَّعْدِ فَوقَ المُرَادْ

(١) يُنظر ديوان ابن زمرك، ص٧٠، ٧٥، ٨٥، ٨٨، ١٠٢، ٢٢١، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٦٥، ٣٠٤، ٣٦١، ٣٦٦، ٤٣٦، ٤٣٤، ٤٩٨.

(٢) هو أبو جعفر، أحمد بن عبدالرحمن بن أبي الوليد أحمد الكناني الوقشي، بلنسي، سكن مالقة، وتردّد إليها كثيرا، كان من بيت جلالة وحسب، شهيرًا، سريّ الهمّة، أديبًا بارعًا فاضلا، شاعرًا مطبوعًا، كاتبًا بليغًا، ت(٥٧٤هـ)، يُنظر ترجمته في: الذّيل والتّكلمة، أبو عبالله محمد المراكشي، ت(٧٠٣هـ)، تحقيق/ د. إحسان عباس، ود. محمد بن شريفة، ود. بشار عواد معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي- تونس،٢٠١٢م، السّفر الأول ٣٨٣/١: ٣٧٧.

(٣) أعلام مالقة، ص١٤٢، ١٤٣.

فيجاوبه ابن جبير بقصيدة رائعة، استهلّها بالشّكر لصهره على تلك الهديّة، وبأنّه سيردّها إليه بأربع مقطوعات من الشّعر، يصوّرها في قوّة بيانها، ورقّة ألفاظها، وجزيل معناها، وسهولته جريانها على لسانه، وخلوّها من كلّ عيبٍ أو نقدٍ، بالسّيوف القاطعة، غير أنّه لا يحفظها في أغماد كما يفعل الفرسان، وإنّما قد حفظها في سويداء قلبه، كذلك جعلها معينًا له يوم الفخار، بخلاف السّيوف التي يعدّها حاملها ليوم الجلاد، فيقول(١): **(من المتقارب)**

لَكَ الشُّكْرُ شفّعتَ بِيضَ الأيَادِي ... بِأبْيَضَ صَافَحَنِي بِالنَّجَادْ

تَهَادَى بِأرْبَعَةٍ مِثْلِهُ ... حِدَادٍ لَبِسْنَ حِدَادَ المِدَادْ

سُيُوفٌ مِن النَّظْمِ مَطْبُوعَةٌ ... مُقَلّلَةٌ عَرْكَ كُلّ انْتِقَادْ

أتَتْنِيَ فِي الطِّرسِ مَسْلُولَة ... فَأغْمَدْتُهَا فِي سَوَادِ الفُؤَادْ

فَأعْدَدْتُ هَذِي لِيَومِ الفِخَارِ ... وَأعْدَدْتُ هَذَا لِيَومِ الجِلادْ

يتبيّن ممّا سبق أنّ الشّعراء الأندلسيين كانوا يعرفون للهديّة قدرها في تأكيد العلاقات الشّخصية كوجه من وجوه المحبّة الخالصة، والتّرابط الاجتماعي كمظهرٍ من مظاهر الحضارة والتّقدّم، وحتّى على المستوى السّياسي كدليلٍ على الطّريقة التّوددّيّة التي يتبادلها الحكّام مع الرّعية.

٥- شعر المخاطبات والمراسلات:

تعدّ المراسلات والمخاطبات من ألوان شعر الإخوانيّات التي كان لها حضور بارز في السّاحة الأدبية على مدار العصور الأندلسية، ويبدو أنّه قد ازدهر ازدهارًا

(١) أعلام مالقة، ص١٤٣.

كبيرًا في أواخر العصر الموحّدي "الثّلث الثّاني من القرن السّابع الهجري"، حتّى أصبح يشكّل ظاهرة أدبية كبيرة، تزخر بها الدّواوين، وغيرها من مصادر الشّعر والأدب.

ووجود هذا اللّون من الشّعر يؤكّد "أنّ الشّعر كان لغة الرّسالة تمامًا، على النّحو الذي كان عليه النّثر، فعبر عن جميع الأغراض التي تحتويها الرّسالة النّثرية الإخوانية، فمن دعوة إلى مجلس أنس إلى إجابة وشكر، ومن إهداء واستهداء إلى تهنئة وتسلية وتقارض ثناء، وترجع أهمية هذا التّراسل الشّعري إلى ما له من دلالة فنّية لما يمتاز به أسلوبه من السّهولة واليسر، وبعده عن التّكلّف والتّزوير العاطفي، واشتراك جميع الطّبقات فيه من الملوك والأمراء وعامة الشّعب"(١).

ولعل من أبرز الأسباب التي أدّت إلى ازدهار هذا الموضوع: الظّروف السّياسية التي سادت أواخر عصر الموحّدين، وحتّى سقوط الخلافة، وما تبع ذلك من سقوط المدن الأندلسية، وتشتّت هؤلاء الأصدقاء من الأدباء في الأندلس نفسها، أو في غيرها من بلاد المغرب والمشرق، وإحساسهم بالغربة والحنين، ويأسهم من عودة مدنهم، كل ذلك عمّق المأساة في نفوسهم، وأدّى إلى وجود لون معين من المراسلات الشّعرية التي تصور تلك المأساة كما أحسّوا بها، وذاقوا مرارتها، وحاول كل منهم نقل مشاعره إلى صديقه؛ لعلّه يشاركه فيما هو فيه، وكأنّ النّفس تهدأ وتأنس بنقل أحاسيسها لأحبّائها ومشاركتهم لها، يدلّنا على ذلك ما نظمه الشّاعر مرج الكحل متشوّقًا لصديقه أبي عمرو الشّريشي بعد غياب طال بينهما، حيث يقول(٢):

(من الوافر)

أَبَا عمروٍ متى تقضي اللّيالي بلَقِيَاكُمْ وهُنَّ قصصن ريشي

أبتْ نفسي هَوى إلا شَرِيشًا ويا بُعْدَ الجزيرة من شَريشِ

(١) البيئة الأندلسية وأثرها في الشّعر عصر ملوك الطّوائف، سعد إسماعيل شلبي، ط/ دار نهضة مصر، الفجّالة، ١٩٧٨م، ص٤٧٦.

(٢) ديوان مرج الكحل، ص٩٣.

ومن روائع هذا الشّعر أيضًا قصيدة لابن سعيد الغرناطي[١]، يتشوّق فيها إلى صديقه الكاتب الأديب أبي العبّاس الغسّاني[٢]، مصوّرًا شوقه وحنينه إليه، وأثرهما الكبير على نفسه بليل قد غابت أنجمه فأظلم واستوحش، وظمآن قد حُرم مذاق الماء فتغيّرت معالمه، كاصفرار وجهه، ونحول جسمه، ولكنّ النّجوم قد طلعت من جديدٍ، فأنارت الكون بنورها الوضّاء، كذلك ارتوى الظّمآن، فعادت إليه الحياة عندما أسعفه صاحبه برسالة شعريّة وجّهها إليه، متسائلا فيها عن حاله ومسلّمًا، فإذا بالفرحة تغمر قلبه كلّما عاود النّظر إلى رسالته، كما تفرح الزّهور بماء السّماء، والأنغام الجميلة تملأ مسامعه كلّما ردّد اللسان كلماته الرّقيقة العذبة، فتجهش لذلك وتسعد كما تتمايل الأغصان لغناء الطّير إعجابًا وطربًا، يقول مجاوبًا[٣]: **(من الكامل)**

أَطْلَعْتَ فـي لَيلِ التَّشَوُّقِ أَنْجُمًا ... لَمَّـا بَعَثْـتَ مُسَـائِلا ومُسَـلِمًا

لَـوْلا كِتَابُـكَ ظَلْـتُ فيـهِ حـائِرًا ... حَيثُ اتَّجَهْتُ رَأَيْتُ جُنْحًا مُظْلِمًا

وَافَـى وَأُفْقِـي حَالِـكٌ فَأَنَـارَهُ ... وَأُوامُ شَـوْقِي مُـؤْلِمٌ فَشَـفَى الظَّمَا

أَوْدَعْتُـهُ قَلْبِـي فَفَـاحَ نَسِـيمُهُ ... فَكَأَنَّمَـا نَـدٌّ بِجَمْـرٍ ضُـرِّمَا

فَرَدَدتُـهُ فـي نَـاظِرَي فَكَأَنَّمَـا ... زَهْرُ الرِّيَاضِ سَقَيتَهُ مَاء السَّمَا

فَرَدَدتُـهُ فـي مَسْـمَعِي فَكَأَنَّمَـا ... طَيـرٌ أَمَـالَ الغُصْـنَ حِـينَ تَرَنَّمَـا

---

(١) هو أبو الحسن، نور الدّين، علي بن موسى بن محمّد بن عبد الملك بن سعيد العنسيّ، من ذرية عمّار بن ياسر، مؤرّخ أندلسي، من الشّعراء والأدباء، ولد بقلعة يحصب، قرب غرناطة، ونشأ واشتهر بغرناطة، وقام برحلة طويلة زار بها مصر والعراق والشّام، ت(٦٨٥هـ)، يُنظر ترجمته في: فوات الوفيّات، صلاح الدّين، محمّد بن شاكر، ت(٧٦٤هـ)، تحقيق/ د. إحسان عبّاس، ط١، دار صادر بيروت، ١٩٧٤م، ٣/ ١٠٣، والأعلام، ٥/ ٢٦.

(٢) هو أبو العبّاس، أحمد بن إبراهيم الغسّاني، كاتب مذكور، وشاعر مشهور، كان بحرًا زَاخرًا في الرّواية، وروضًا ناضرًا في المعرفة والدّراية، فارسًا في ميدان الإرتجال، ففي أيّ نوع طلب المقال جاد ووفّى، متصرّفًا في أنواع البلاغة وسائر فنونها، يُنظر ترجمته في: اختصار القدح المعلّى، ص١٢.

(٣) اختصار القدح المعلّى، ص٥.

ويمكن أن يُسمّى هذا النّوع من المراسلات والمخاطبات بشعر "الصّداقة"؛ لأنّه يدلّ على عمق العلاقة التي كانت تجمع بين الأدباء والشّعراء والكتّاب، متّخذين من الصّداقة أوثق رباط يجمع بينهم، ويلمّ شتاتهم، ولا أدلّ على ذلك من قول ابن عميرة في قصيدة بعث بها إلى صديقه أبي محمّد البونتي[١] يقول فيها[٢]: **(من الكامل)**

بَيْنِـي وَبَيْنَـكَ نِسْبَةٌ شَـهِدَتْ أَنَّ الْمَـوَدَّةَ أَوْثَـقُ النِّسَـبِ

بِنُضَـارِهَا أَجْـزِي قَرِيْضَـكَ لا بِمُزَيَّـفِ الأَشْـعَارِ وَالْكُتُـبِ

وَلَرُبَّمَـا كَـانَ الْـوِدَادُ إِذَا جَرَّبْتَـهُ أَحْرَى مِـنَ الـذَّهَبِ

وممّا يتّصل بشعر الصّداقة إبراز مشاعر المحبّة والمودّة بين الأصدقاء، على نحو ما نجده في قصيدة لأبي عثمان، سعيد بن حكم القرشي[٣]، أرسلها إلى صديقه أبي الرّبيع التّينملي، المعروف بابن الغرير[٤]، يؤكّد ما بينهما من أواصر المحبّة، وعهود الصّفاء والوفاء، مشبّهًا حلول تلك المشاعر الفيّاضة من نفسه بحلول الأمن مِن نفس الجبان، ويعلن حفظه لتلك العهود مادام على قيد الحياة، كما يبثّ فيها لواعج شوقه وحنين قلبه إليه كلّما تذكّر أيّام أنسه وقربه، على طريقة شعراء الحبّ العذري، مادحًا الزّمان لإشفاقه عليه بلقاء صديقه حين سأله، رُغم طول بخله، فهذا اللّقاء قد أقرّ عينه، وقرّب له من الأماني ما كان نائيًا، يقول[٥]: **(من الوافر)**

سَـلامٌ لا يَـزَالُ مَـدَى الزَّمَـانِ مِـن الحَـالِ المُحِيلَـةِ فـي أَمَـانِ

أَخُـصُّ بِـهِ حَبِيبًـا حَـلَّ مِنِّـي مَحَـلَّ الأَمْـنِ مِـن نَفْـسِ الجَبَـانِ

---

(١) لم أعثر له على ترجمة فيما توفّر لي من مصادر.

(٢) زواهر الفكر، وجواهر الفقر، لابن المرابط الاشبيلي، ت(٦٦٣هـ)، دراسة وتحقيق/ د. حسن إفليفل، ط١، مكتبة الملك عبد العزيز العامة- الرياض، ١٤١٨هـ= ١٩٩٨م، ص٥٣، ١٩٣.

(٣) هو أبو عثمان، سعيد بن حكم بن عمر بن حكم القرشي، أحد أعلام الشعراء والكتاب المترسلين في القرن السّابع الهجري، أصله من طبيرة بغرب الأندلس وبها ولد، قدم على ميورقة قبل أن يدخلها الروم عنوة في منتصف صفر سنة سبع وعشرين وستمائة بيسير، ثمّ صارت إليه رئاستها، ت(٦٨٠هـ)، يُنظر ترجمته في: الحلّة السّيراء، ابن الأبار القضاعي، ت(٦٥٨هـ)، تحقيق/ د. حسين مؤنس، ط١، دار المعارف- القاهرة، ١٩٨٥م، ٢/ ٣١٨، ٣١٩.

(٤) هو الشّيخ أبو الرّبيع، سليمان بن علي التّينملي، المعروف بابن الغرير، أحد وجوه تونس في زمن الدّولة الحفصية، وفد على الرّئيس ابن حكم فأكرم وفادته، ووالى عليه أنواع البرّ، يُنظر ترجمته في: اختصار القدح المعلّى، ص٣٤.

(٥) الرّئيس: سعيد بن حكم القرشيّ، حياته وما تبقّى من شعره، دراسة وجمع د. عبدالرّازق حسين، ط١، مركز البابطين لتحقيق المخطوطات الشّعريّة، ١٤٣٨هـ= ٢٠١٧م، ص٥١، ٥٢.

أَصُونُ وِدَادَهُ مَا دُمْتُ حَيًّا وَلَيسَ سِوَى فُؤَادِي مِن صِوَانِ
وَأَذْكُر عَهْدَهُ فَأذوب شَوقًا إِلَيهِ حَنَانَ عُذْرِيّ الحَنَانِ
سَأَلْتُ مِن الزّمَانِ لِقَاهُ فَاسْ تَجَابَ لَنَا عَلَى بُخْلِ الزّمَانِ
لِقَاءُ أَبِي الرَّبِيعِ أَقَرَّ عَيْنِي وَأَدْنَى لِي القَصِيّ مِن الأَمَانِي

ومن المراسلات الشّعرية فرع يسمّى بالمطارحات "فبدلا من أن يكتب الشّاعر إلى صديقه رسالة فإنّه يبعث إليه نصًّا من الشّعر، ولا تسمّى مطارحة إلا عندما يُرَدُّ على شعره بشعر مثله، يتّفق معه وزنًا وقافيةً، وقد عرف المشارقة هذا اللّون من المراسلات، ولكن الأندلسيين توسّعوا فيه حتّى كاد يكون فنًا مستقلا بذاته"[1]، ويطلق بعض الباحثين على المطارحات الشّعرية اسمًا آخرًا وهو المساجلة، ويعرّفها بقوله: "هي حاصل الجمع بين قصيدتين ودّيتين تكون الثّانية منهما جوابًا للأولى، وتشتركان في الوزن والقافية وحرف الرّوي"[2]، ومن الأمثلة على ذلك قصيدة لأبي بكر بن المرابط أرسلها إلى مجموعة من أصدقائه، يقول فيها[3]: **(من الكامل)**

يَا مَنْ سَمَتْ هِمَّاتُهُمْ فَمَكَانُهَا فِي حَيثُ يَحْسِدُهَا السِّمَاكُ الأَعْزَلُ
وَتَوَاضَعُوا فَلَهُمْ خَلائِقُ عَذْبَةٌ كَالشُّهْدِ شِيبَ بِهِ الزُّلالُ السّلسَلُ
هَلْ تَذْكُرُونَ إِذَا شَدَا مُكَّاؤُكُمْ وَأَجَابَهُ وَرَشَانُهُ وَالبُلْبُلُ[4]
وَتَأَرَّجَتْ تِلكَ الرُّبَا غِبَّ الحَيَا فَكَأَنَّمَا قَدْ شَبَّ فِيهَا المِنْدَلُ[5]

(١) البيئة الأندلسية، ص٤٨٥، ٤٨٦.
(٢) الإخوانيات في الشّعر العباسي، ص٢٠٩.
(٣) زواهر الفِكَر وجواهر الفِقَر، لأبي العلاء بن المرابط، ت(٦٦٣هـ)، تحقيق/ د. أحمد المصباحي، ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المغرب، ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م، ٢٧٥/١، ٢٧٦.
(٤) المكاء: طائر أبيض اللّون، يألف الرّيف، وله صفير حسن، وجمعه المكاكي، لسان العرب، مادّة (مكا)، ٤٢٥١/٦.
(٥) غبّ: من قولهم غبّ الأمر إذا بَعُد، والمندل: العود الطّيب الرّائحة، السّابق، مادّة (غبأ)، ٣٢٠٣/٥، ومادّة ومادّة (مندل)، ٤٢٧٥/٦.

وَتَفَتَّحَتْ طِيقَانُ ذَاكَ المُنْتَدَى فَتَلاعَبَتْ فِيهَا الصَّبَا وَالشَّمْأَلُ

وَأَدَرْتُمُ رَاحَ المِزَاحِ بِحَقِّهَا وَأَزَاهِرُ الآدَابِ مَا يُتَنَقَّلُ

مَن لا تَزَالُ إِلَيكُمُ أَشْوَاقُهُ كَالنَّارِ مَا بَينَ الجَوَانِحِ تُشْعَلُ

وَلَئِنْ يَكُنْ قَدْ غَابَ عَنْكُمْ جِسْمُهُ فَالنَّفْسُ عَنْ مَغْنَاكُمُ لا تَعْدِلُ

إِنَّ النُّفُوسَ إِذَا صَفَتْ مَا دُونَهَا بَابٌ يُسَدُّ وَلا حِجَابٌ يُسْدَلُ

يعتذر الشّاعر عن حضور مجلسٍ كان قد اعتاد حضوره مع كوكبة من أهل العلم والأدب، فيمدحهم بسمو الهمّة، والتّواضع، وغيرها من مكارم الأخلاق، التي تُشبه الشّهد في عذوبتها، مؤكّدًا لهم أنّه وإن غاب عنهم بجسمه، إلا أنّه حاضر معهم بقلبه، ولا عجب! فمتى تصفو الضّمائر والنّفوس بين الأحبّة والأخلاء، فلا بابٌ يُسدُّ، ولا حجابٌ يُسدل ليفرّق بينها، فأجابه الفقيه الأجلّ، أبو عبدالله محمّد بن إبراهيم، بقصيدة تظهر منها عاطفة الحبّ والتّقدير لصديقه ابن المرابط، فبحضوره يحضر التّأنس في قلوب الأصدقاء كاملا، وبذكره الذي تتعطّر منه الرّياض إذا غاب عنهم يكتمل، إذ يقول[1]: **(من الكامل)**

بِحُضُورِكُمْ حَضَرَ التَّأَنُّسُ كَامِلا وَبِذِكْرِكُمْ عِنْدَ المَغِيبِ يُكَمَّلُ

طَابَ السَّمَاعُ بِذِكْرِكُمْ وَتَعَطَّرَتْ مِنهُ الرِّيَاضُ وَفَاحَ عَنْهُ المَنْدَلُ

وَمِن اعْتِدَالِكُمُ عَرَتْنَا هَزَّةٌ تَحْكِي بِهَا الأَغْصَانِ إِذْ تَتَمَيَّلُ

لَمْ يَجْرِ أُنْسٌ بَعْدَكُمْ إلا بِمَا تُجْرِيهِ عَنْكُمْ أَوْ بِكُمْ يُتَخَيَّلُ

فَإِذَا تَمَثَّل في الخَوَاطِرِ شَخْصُكُمْ فَالحُسْنُ أَجْمَعُ بَينَنَا يَتَمَثَّلُ

(١) زواهر الفكر، وجواهر الفقر، تحقيق/ د. أحمد المصباحي، ٢٧٦/١، ٢٧٧، ولم أعثر على ترجمة لهذا الفقيه فيما رجعت إليه من مصادر ومراجع.

ومن روائع المطارحات الشّعرية في عصر سيادة غرناطة ما كان بين الوزير ابن الجيّاب الغرناطي وتلميذه ابن الخطيب، ومن أبرزها قول الثّاني محبًّا ومتشوّقًا[1]: **(من الطويل)**

أَمُسْــتَخْرِجًا كَنْــزَ العَقِيــقِ بآمَــاقِي　　أُنَاشِدُكَ الرَّحْمَنَ في الرَّمَقِ البَاقِي؟[2]

فَقَدْ ضَعُفَتْ عَن حَمْلِ صَبرِيَ طَاقَتِي　　عَلَيكَ وَضَاقَتْ عَنْ زَفِيرِيَ أَطْوَاقِي

أُجَــنُّ إذَا جَــنَّ الظَّــلامُ فَلَــيسَ لِــي　　سِوَى نَسْمَةِ الفَجْرِ اللَّطِيفَةِ مِن رَاقِي

وَرُبَّتَمَــا اسْــتَغْدَيتُ فِيهَــا تَمِيمَــةً　　فَزَعْفَرَهَــا بِالــدَّمْعِ كَاتِــبُ آمَــاقِي

تؤكّد هذه الأبيات على صدق المحبّة القائمة في نفس ابن الخطيب لشيخه، فيستهلّ كلامه بالاستفهام عن أشواقه إليه، وحنينه الدّائب إلى رؤيته، وحاجته الماسّة إلى السّماع لطيب حديثه، والانتفاع بغزير علمه، مشبّهًا دموعه الذّارفة بالدُّرِّ الثّمين في قوله: "كنز العقيق"، وفي تخصيص هذا النّوع من الأحجار الكريمة دلالة واضحة على حرقة بكاء الشّاعر، الأمر الذي جعل ماء دموعه تخالَطُ بلون الدّم، وانطلاقًا من حقيقة الضّعف الإنساني في ممارسة بعض العلاقات الإنسانية، والعواطف الوجدانية، يُعلن الشّاعر أن قواه قد خارت، ولم يعد يحتمل الصّبر على فراق شيخه، ويفصح عمّا يُعانيه كلّما جنّ عليه ظلام اللّيل من وحشة وهموم وأحزان، فلا يجد ما يسلّيه ويصبّره على تلك الحالة سوى نسمة الفجر الرّقيقة، التي ينتظر إشراق نورها لساعاتٍ طويلة، كناية عن سهاده وقلقه، فما كان من شيخه إلا أن أجابه بمطارحه شعرية، يقول فيها[3]: **(من الطويل)**

سَقَانِي فَأَهْلا بِالسِّقَايَةِ وَالسَّاقِي　　سُلافًا بِهَا قَامَ السُّرُورُ عَلَى سَاقِ

(١) ديوان لسان الدّين بن الخطيب ٢/٧٠١.
(٢) كنز العقيق: وهو ضربٌ من الخرز الأحمر يُصنع منه الفصوص، لسان العرب، مادّة (عقق)، ٤/٣٠٤٤، والمعجم الوسيط، ص٦١٦.
(٣) ديوان ابن الجيّاب، ص٢٩٦.

وَلا نَقْـلَ إلا مِـن بـدَائِعِ حِكْمَـةٍ وَلا كَــأسَ إلا مِـــن سُـــطُوْرٍ وَأوْرَاقِ
فَقَدْ أنْشَأتْ لِي نَشْوَةً بَعْدَ نَشْوَةٍ تَمُـــــــدُّ بِرُوْحَانِيَّـــــــةٍ ذَاتَ أذْوَاقِ
فَمِنْ خَطِّهَا الفَانِي مَتَاعٌ لِنَاظِرِي وَسَمْعِي وَرُوحُ الرّوحِ مِن خَطِّهَا البَاقِي

تبدو هنا روح الألفة والمودّة بين الأستاذ وتلميذه في أجمل صورها، فالشّاعر يُجيب على ابن الخطيب بكلّ حبٍ وتواضعٍ وتقدير، مرحّبًا برسالته التي وجّهها إليه، وكأنّها سقاية أدبية، مرصّعة بأعذب الألفاظ، وأرقّ الكلمات، وأصدق المشاعر، يتسنّى لها أن تروي ظمأ القلوب، وتطفىء لهيب النّفوس، فيشبّهها بالخمر، جاعلا من بدائع حكمة ابن الخطيب فيها عوضًا عن المادّة الخمرية المسكرة، ومن أوراق الرّسالة وخطوطها عوضًا عن الكأس التي تُصبّ فيها، ممّا يجعله يشعر بالمتعة واللّذّة، لا على المستوى المادّى كشارب الخمر، ولكن في إطارٍ روحانيٍّ أصيل، يفيض بالأذواق الرّفيعة والمعاني الشّريفة، فمن خطّها الفاني متاع لناظريه، ومن خطّها الباقي متاع لروحه وفؤاده.

وشعراء هذا اللّون كثيرون، وما تبادلوه فيما بينهم يكاد يفوق الحصر، فقد ساعدت الظّروف السّياسية والاجتماعية التي شهدتها الأندلس في القرون الأخيرة من الحكم الإسلامي على رواجه، بالإضافة إلى أنّ كبار الشّعراء في ذلك الوقت العصيب كانوا من الكتّاب، الذين يجد فيهم هذا اللّون من الأدب تربة صالحة لرواجه وازدهاره.

الخاتمــة

الحمد لله ربّ العالمين، أحمده سبحانه وتعالى على جزيل نعمه، وفيض عطاياه، وما غمرني به من فضل وتوفيق، فله الحمد في الأولى والآخرة وهو الحكيم الخبير، والصّلاة والسّلام الأتمّان الأكملان على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين.

وبعد،،،

فقد تناولت في هذا البحث صورة المجتمع الأندلسي فيما بين القرنين السّابع والتّاسع الهجريين من خلال ما سجّله الشّعراء في دواوينهم، فخلصت إلى عدّة نتائج، منها:

- اهتمام الشّعراء الأندلسيين بتصوير مجتمعاتهم، وبراعتهم في تسليط الضّوء على كثير من المعاني الإنسانيّة، التي أظهرت تمسكهم الشّديد بروابط الأخوة والصّداقة والوفاء؛ حرصًا منهم على قيام مجتمع متماسك، يسوده التّعاون ويعمّه الأمن والسّلام.
- ثبت من خلال هذه النّصوص الشّعرية وغيرها أنّ تعايش الأديان، وحوار الثّقافات والحضارات حقيقة جسّدها الإسلام في بلاد الأندلس، بكلّ تفاصيلها، حيث اتّسعت لكثير من الشّعوب والأجناس، فعاشوا حياة واحدة، تظلّهم فيها روح المودّة والتّسامح.
- لم يقف الشّعراء صامتين أمام الفساد الاجتماعي، والانحلال الأخلاقي الذي تفشّى في أنحاء مملكتهم الغرناطية قبيل سقوطها، بل أنكروه، وندّدوا به، ونقدوه نقدًا صريحًا، وحاولوا جاهدين أن يتغلبوا عليه، ويتصدّوا له بكلّ ما أوتوه من مواهب أدبية وفنّية.
- لعبت الكلمة دورًا عظيمًا في حياة الأفراد والمجتمعات والدّول، ولا عجب، فإذا كان الفرسان يجاهدون بالسّيوف القاطعة في ميادين القتال، رافعين لواء الدّين والوطن،

فأصحاب الكلمة من الأدباء والشّعراء وغيرهم يحملون في سبيل ذلك أيضًا سلاح الكلمة الذي لا يُستهان بقوّته؛ لأنّها تخاطب المتلقّي فتمسّ منه الرّوح والقلب والعقل معًا، ولا أدلّ على ذلك من قصائد آخر شعراء غرناطة من أصحاب الدّواوين، عبدالكريم القيسي، في نقده لما وصل إليه المجتمع الأندلسي من الفساد الديني والأخلاقي، ممّا كان له عظيم الأثر في ضعف الدّولة وسقوطها.

- يعدّ من أبرز خصائص شعر الإخوانيّات الأندلسية في حقبة الدّراسة على اختلاف أغراضه، تأديته دور النّثر، وحلوله محلّ الرّسائل الكتابية غير المنظومة، فبدلا من أن يبعث الشّاعر إلى شيخه أو صديقه رسالة، يبعث إليه مقطوعة شعرية، تتضمّن معنى الرّسالة، ويميل فيها إلى سهولة الألفاظ، وجمال الصّياغة، وتنوّع الأسلوب، ووضوح المعاني، وبراعة التّصوير، والبعد بها قدر الإمكان عن المبالغات الشّديدة، أو الغلو الممقوت.

هذا وبالله التّوفيق، وصلّى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم.

ثبت المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

أولاً: المصـادر:

- اختصار القدح المعلّي في التّاريخ المحلّي، ابن سعيد أبي الحسن المغربي، اختصره/ أبو عبدالله بن محمّد، تحقيق/ إبراهيم الأبياري، ط١، وزارة الثقافة والإرشاد القومي- القاهرة، ١٣٧٨هـ= ١٩٥٩م.
- أعلام مالقة، أبو عبدالله بن عسكر، وأبو بكر بن خميس، تقديم/ د. عبدالله المرابط التّرغي، ط١، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ودار الأمان- الرّباط، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.
- ديوان إبراهيم بن الحاجّ النميري، تحقيق/ د. عبدالحميد عبدالله الهرامة، ط١، المجمع الثّقافي- أبو ظبي، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م.
- ديوان ابن الجيّاب الغرناطي، تحقيق د. فوزي عيسى، ط١، مكتبة الآداب- القاهرة، ٢٠١٦م.
- ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي، تحقيق/ د. محمّد رضوان الدّاية، ط١، دار الفكر المعاصر- بيروت، دار الفكر- دمشق، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م.
- ديوان ابن زمرك الأندلسي، تحقيق/ د. محمّد توفيق النّيفر، ط١، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧م.
- ديوان ابن سهل الأندلسي، تحقيق/ د. إحسان عبّاس، ط، دار صادر بيروت، بيروت، ١٤٠٠هـ= ١٩٨٠م.
- ديوان ابن فركون، تحقيق/ د. محمد بن شريفة، ط١، أكاديمية المملكة المغربية، ١٤٠٧هـ= ١٩٨٧م.
- ديوان الرّحالة بن جبير الأندلسي وما وصل إلينا من شعره، تحقيق/ د. منجد مصطفى بهجت، ط١، دار الرّفاعي، الرّياض، ١٤١٩هـ= ١٩٩٩م.

- ديوان الرّصافي البلنسي، جمع وتقديم/ د. إحسان عبّاس، ط٢، دار الشّروق، ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م.
- ديوان عبدالكريم القيسي، تحقيق/ جمعة شيخة، ومحمّد الهادي الطّرابلسي، ط١، المؤسّسة الوطنية، بيت الحكمة- الرّباط، ١٩٨٨م.
- ديوان لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق/ د. محمّد مفتاح، ط١، دار الثّقافة- الدّار البيضاء، ١٤٠٩هـ= ١٩٨٩م.
- ديوان مرج الكُحل الأندلسي، ت(٦٣٤هـ)، تحقيق/ البشير التهالي، ورشيد كناني، ط١، مكتبة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م.
- ديوان ملك غرناطة يوسف الثّالث، تحقيق/ عبدالله كنون، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة، ١٩٦٥م.
- الذيل والتكلمة، أبو عباله محمد المراكشي، ت(٧٠٣هـ)، تحقيق/ د. إحسان عباس، ود. محمد بن شريفة، ود. بشار عواد معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي- تونس، ٢٠١٢م.
- الرّئيس: سعيد بن حكم القرشيّ، حياته وما تبقّى من شعره، دراسة وجمع د. عبدالرّازق حسين، ط١، مركز البابطين لتحقيق المخطوطات الشّعريّة، ١٤٣٨هـ= ٢٠١٧م.
- زاد المسافر وغرّة مُحيّا الأدب السّافر، أشعار الأندلسيين من عصر الدّولة الموحّدية، لأبي بحر بن صفوان التّجيبي، ت (٥٩٨هـ)، إعداد وتعليق/ عبدالقادر محداد، ط دار الرّائد، بيروت، ١٩٨٠م.
- زواهر الفِكَر وجواهر الفِقَر، لأبي العلاء بن المرابط، ت(٦٦٣هـ)، تحقيق/ د. أحمد المصباحي، ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المغرب، ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م.

• زواهر الفكر، وجواهر الفقر، لابن المرابط الاشبيلي، ت(٦٦٣هـ)، دراسة وتحقيق/ د. حسن إفليفل، ط١، مكتبة الملك عبد العزيز العامة- الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

• شعر ابن ليون التّجيبي، ت(٧٥٠هـ)، مجلة المورد، دراسة وتحقيق/ هدى شوكت بهنام، المجلّد "٣١"، العدد "٣، ٤"، ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م.

• المطرب من أشعار أهل المغرب، أبو الخطّاب عمر بن دحية الكلبي، ت(٦٣٣هـ)، تحقيق/ أ. إبراهيم الأبياري، د. حامد عبدالمجيد، د. أحمد أحمد بدوي، راجعه/ د. طه حسين، ط دار العلم للجميع، بيروت- لبنان، ١٣٧٤هـ= ١٩٥٥م.

• نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري التلمساني، ت(١٠٤١هـ)، تحقيق/ د. إحسان عباس ط١، دار صادر، بيروت- لبنان ١٩٩٧م.

ثانيًا: المراجع:

• أبو الطّيب المتنبي في مصر والعراقين، د/ مصطفى الشّكعة، ط٢، الدّار المصرية اللّبنانية، ٢٠٠١م.

• أبو العبّاس أحمد بن شكيل الأندلسي، شاعر شريش، تحقيق/ د. حياة قارة، ط١، المجمع الثّقافي- ابو ظبي، ١٩٩٨م.

• الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدّين ابن الخطيب، ت(٧٧٦هـ)، تحقيق د/ يوسف على طويل، ط١، دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.

• الإخوانيات في الشّعر الأندلسي، د/ علي الغريب محمّد الشناوي، ط١، مكتبة الآداب القاهرة، ٢٠٠٦م.

• الإخوانيات في الشّعر العباسي، محمد عثمان الملا، ط١، نادي المنطقة الشّرقية الأدبي، المملكة العربية السّعودية، ١٤١٢هـ.

• الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشّكعة، ط٧، دار العلم للملايين، لبان- بيروت، ١٩٩٢م.

- أروع ما قيل في الإخوانيات، إميل ناصيف، ط/، دار الجيل- بيروت، ١٤١٦هـ=١٩٩٦م.
- الأعلام للزّركلي، ت(١٣٩٦هـ)، ط١٥، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.
- أمثال العوام في الأندلس، لأبي يحيى أحمد الزّجالي القرطبي، ت(٦٩٤هـ)، تحقيق د. محمّد بن شريفة، منشورات وزارة الدّولة، المملكة المغربية، د.ت.
- البسطي آخر شعراء الأندلس، د/ محمّد بن شريفة، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٨٥م.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أبو جعفر الضبي ت(٥٩٩هـ)، ط دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.
- البيئة الأندلسية وأثرها في الشّعر عصر ملوك الطّوائف، سعد إسماعيل شلبي، ط/ دار نهضة مصر، الفجّالة، ١٩٧٨م.
- تاريخ الإسلام، شمس الدّين ابن قايماز الذهبي، ت(٧٤٨هـ)، تحقيق/ د. بشار عوّاد معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٣م.
- تحفة القادم، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، المتوفى:(٦٥٨هـ)، تحقيق/ د. إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.
- التّصوير الفنّي للحياة الاجتماعية في الشّعر الأندلسي، حسن أحمد النّوش، ط١، دار الجيل للطّبع والنّشر والتّوزيع، بيروت، ١٩٠٠م.
- تفسير القرطبي، لشمس الدّين القرطبي، ت(٦٧١هـ)، تحقيق/أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ= ١٩٦٤م.
- ثلاث رسائل أندلسيّة في آداب الحسبة والمحتسب، محمّد بن عبدون التّجيبي، وأحمد بن عبدالله بن عبدالرؤوف، وعمر بن عثمان بن العبّاس الجرسيفي، تحقيق أ.

ليفي بروفنسال، ط١، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشّرقية، القاهرة، ١٩٥٥م.

• الحروب الأهليّة في غرناطة، (من أهل القرن العاشر الهجري/السّادس عشر الميلادي)، خينيس بيريث دي إيتا، ترجمة/ مروة محمّد إبراهيم، ط١، المجلس الأعلى للثّقافة، مصر، ٢٠٠٩م.

• الحلّة السيراء، ابن الأبار القضاعي، ت(٦٥٨هـ)، تحقيق/د. حسين مؤنس، ط١، دار المعارف- القاهرة، ١٩٨٥م.

• حياة الشّعر في نهاية الأندلس، حسناء بوزويته الطّرابلسي، ط١، دار محمّد علي الحامي، تونس، ٢٠٠١م.

• درّة الحجال في أسماء الرّجال، لأبي العبّاس أحمد بم محمّد المكناسي، ت(٩٦٠هـ)، تحقيق/ د. محمّد الأحمدي أبو النّور، ط١، مطبعة السّنة المحمّدية، ١٣٩١هـ= ١٩٧١م.

• الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة، أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني ت(٨٥٢هـ)، تحقيق/ محمّد عبد المعيد ضان، ط٢، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٢هـ= ١٩٧٢م.

• ديوان علي بن الجهم، تحقيق/ خليل مردم بك، ط٥، وزارة المعارف- المملكة العربية السّعودية، د.ت.

• ديوان النّابغة الذّبياني، شرح وتقديم/ حمدو طمّاس، ط٢، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت – لبنان، ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م.

• سير أعلام النّبلاء، شمس الدّين بن محمّد بن قايْماز الذّهبي، ت(٧٤٨هـ)، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط، ط٣، مؤسّسة الرّسالة- بيروت ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

• صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي القلقشندي، ت(٨٢١هـ)، ط دار الكتب العلمية- بيروت، د.ت.

• صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، محمّد بن إسماعيل البخاري، ت(٢٥٦هـ)، تحقيق/ محمّد ناصر الدّين الألباني، ط٤، دار الصّديق للنّشر والتّوزيع، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.

• صحيح البخاري، محمّد بن إسماعيل البخاري، تحقيق/ محمّد زهير بن ناصر النّاصر، ط١، دار طوق النّجاة، ١٤٢٢هـ.

• الصّيد والطّرد في الشّعر العربي حتّى نهاية القرن الثّاني الهجري، د/ عبّاس مصطفى الصّالحي، ط١، المؤسّسة الجامعية للدّراسات والنّشر، بيروت- لبنان، ١٤٠٢هـ= ١٩٨١م.

• فنون الشّعر في مجتمع الحمدانيين، د/ مصطفى الشكعة، ط مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٨م.

• فوات الوفيّات، صلاح الدّين، محمّد بن شاكر، ت(٧٦٤هـ)، تحقيق/ د. إحسان عبّاس، ط١، دار صادر بيروت، ١٩٧٤م.

• قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، أبو نصر الفتح بن خاقان، ت(٥٢٩هـ)، تحقيق/ د. حسين يوسف خريوش، ط١، مكتبة المنار، الأردن، ١٤٠٩هـ= ١٩٨٩م.

• الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثّامنة، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق/ د. إحسان عبّاس، دار الثّقافة، بيروت، ط١٩٨٣م.

• لسان العرب، لابن منظور، ت(٧١١هـ)، تحقيق/ عبد الله الكبير، ومحّمد أحمد حسب الله، وهاشم محمّد الشاذلي، ط دار المعارف- القاهرة، د.ت.

• اللّمحة البدرية في الدّولة النصرية، لسان الدّين بن الخطيب، تحقيق/ د. محمّد مسعود جبران، ط١، دار المدار الإسلامي، بيروت- لبنان، ٢٠٠٩م.

• المحاسن والأضداد، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري، ت(٢٥٥هـ)، ط٢، مكتبة الخانجي، مصر، ١٤١٥هـ= ١٩٩٤م.

- مسلمو مملكة غرناطة بعد عام ١٤٩٢، خوليو كارو باروخا، ترجمة/ جمال عبدالرحمن، ط١، المجلس الأعلى للثّقافة، مصر، ٢٠٠٣م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن حنبل، ت(٢٤١هـ)، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، ط١، مؤسّسة الرّسالة، ١٤٢١هـ= ٢٠٠١م.
- مشاهدات لسان الدّين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، د. أحمد مختار العبادي، ط١، مؤسّسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣م.
- مظاهر التّسامح الدّيني في الأندلس من خلال الأعياد والاحتفالات الدّينيّة، عبدالكريم فايزي، مجلّة الحكمة للدّراسات الإسلاميّة، الجزائر، العدد "٧"، ٢٠١٦م.
- مظاهر الثّقافة المغربية، دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني، د. محمّد بن أحمد بن شقرون، ط دار الثّقافة، الدّار البيضاء- المغرب، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٥م.
- مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، د/ أحمد محمّد الطوخي، ط١، مؤسّسة شباب الجامعة- الإسكندرية، ١٩٩٧م.
- مظهر النّور الباصر في أمداح الملك النّاصر، أبو الحسين بن فركون، تحقيق د. محمّد بن شريفة، ط١، مطبعة الصّباح الجديدة، الدّار البيضاء ١٤١٢هـ= ١٩٩١م.
- مع شعراء الأندلس والمتنبّي، سير ودراسات، إميليو غرسيه غومث، ترجمة/ د. الطّاهر أحمد مكي، ط٧، دار الفكر العربي، مصر، ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م.
- معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدّين الحموي، ت(٦٢٦هـ)، تحقيق/ د. إحسان عبّاس، ط١، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م.
- المعجم الكبير، أبوالقاسم الطّبراني، ت(٣٦٠هـ)، تحقيق/ حمدي عبدالمجيد، ط٢، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤١٥هـ= ١٩٩٤م.

- المعجم الوسيط، مجمع اللّغة العربية، ط٤، مكتبة الشّروق الدّولية، ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م.
- المغرب في حلى المغرب أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، تحقيق/ د. شوقي ضيف، ط٣، دار المعارف – القاهرة، ١٩٥٥م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تقي الدّين المقريزي، ت(٨٤٥هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.
- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق/ د. أحمد مختار العبادي، ط١، مجموعة تراثنا، مصر، ١٩٦٨م.
- وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، شمس الدّين بن خلكان، ت(٦٨١هـ)، تحقيق/ د. إحسان عبّاس، ط١، دار صادر – بيروت ١٩٩٤م.

ثالثًا: الرسائل والدوريات:

- استشعار نهاية الأندلس في ديوان عبدالكريم القيسي الأندلسي، د/ حسناء الطرابلسي، ط١، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، عدد "٥"، ١٩٩٠م.
- الأعياد في مملكة غرناطة، أحمد مختار العبادي، مجلّة المعهد المصري للدّراسات الإسلامية في مدريد، مجلّد "١٥"، عام ١٩٧٠م.
- الآفات الاجتماعية في الأندلس ما بين القرنين الخامس والسّادس الهجريين، دراسة في ظاهرة الانحراف، أطروحة مقدّمة من الباحثة/ رقيّة بن خيرة؛ لنيل درجة الدّكتوراه في التّاريخ والحضارة، من جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، الجزائر، ١٤٣٨هـ= ٢٠١٧م.
- الشّعر الاجتماعي في الأندلس في عصر بني الأحمر، بحث مقدّم من الباحثة/ عبير عبدالله الحسين؛ لنيل درجة الماجستير في اللغّة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٧م.
- المكان في شعر مملكة غرناطة، د/ إيمان الجمل، حوليّة كلية الدّراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، المجلد "٦"، العدد "٣٢".